نساء في القرية

تأليف

محمد خزبك

ملتزم الطبع والنشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت . ت ٥١٤٠١

القاهرة

ساهمت وزارة الثقافة والارشـاد
القومى فى اخراج هذا الكتاب

مقدمة

بقلم : رشدى صالح

لا يخلو عصر من عصور التاريخ ، من فن الحكاية والاحـدوثة فالانسان حكاء بطبعه .

ولكن الحكاية الشعبية ليست هى القصة ولن تكون .

الحكاية الشعبية ، أحـــدوثة ، تريد أن تعظ الناس أو تؤرخ لحياتهم أو تسخر من اخطائهم ، أو تشنع على الرذائل ، أو تجمل الخير والحق . فهى نوع من الانشاء التلقائى يراد به غاية عمليـة شأنه فى ذلك شأن غيره من فروع الادب الشعبى .

وأما القصة القصـــيرة فنوع من التأليف الفنى ، القائم على التركيز والتعمـد فى السبك ، والقائم على تجـويد التعبير الفنى ، والجدير بأن يعبر عن ملكة الرواية عند الانسان الفرد .

وليس من الاغراض الدائمة أن تعظ أو تعلم ، أو أن تحقـق اهدافا فلسفية أو أخلاقية . وانما يراد بها ، ان كانت قصة ادبية ، أن تحدث فى نفس القارىء ، ذلك الاثر الكلى الذى قد تحدثه المؤلفة الموسيقية أو القصيدة الشعرية ، أو اللوحة المصورة أو التمثـال المنحـوت .

ومعنى هذا ، انه ينبغى أن يختار الكاتب من بين مجمـــوعة الاحداث التى تقع له فى الخيال ، أو تعرض له فى الحقيقـة ، تلك الاحداث النفسية أو الواقعية التى تكون أشد دلالة من سواها .

عنصر الاختيار ــ اذن ــ عنصر خطير الاهمية والمكانة فى انشاء القصة القصيرة . ذلك أن الحياة تقذف بين أيدينا فى كل ساعة بل فى كل دقيقة ، بعشرات الاحداث ومئاتها ، ولكن أحداث الحيـاة ،

ذاتى متقطعة غير متسقة ، ولعل الكثير منها أن يظل سنوات مبتسرا ناقصا ، ولعل الكثير كذلك أن يشتبك مع أحداث أخرى طارئة ، وأن يتوارى من الذاكرة ويغيب عن الملاحظة .

وكاتب القصة الجيد ، هو هذا الذى يستطيع أن يلتقط مما يرى ويقرأ ويسمع ويجرب ويعانى ، ولما يتصور ويحلم ، ثم يعيد تركيب الاحداث ، ويخلقها خلقا جديدا .

ان ملكة الاستقبال عنده ، لا تقل أهمية عن ملكة الارسال .

هو وجدان شديد الحساسية ، وهو وجدان شديد القـــوة التعبيرية .

هو انسان متفرد ، فى تصوره ، ومتفرد فى تعبيره عن هـــذا التصـــور .

وعندما يحاكى الحياة على اتساعها ، لا يعطينا صورة مطابقـة لهذه الحياة بل يعطينا صورة ممكنة أو صورة محتملة . ثم هو يثير فينا الرغبة ــ ان لم يثر فينا النزوع ــ الى أن نعيش أو نعانى هذه الحياة المتصورة التى يقدمها فى قصصه أو رواياته .

ولكن أى شىء يعطى كاتب القصـــة القدرة على التفرد ؟ لمـاذا يستأثر بقلوبنا ؟ ولماذا يسير أمامنا فى عالم تصوراته الشخصية ؟

ان ما يعطيه هـــذا الحق ، أمـــور لا تواتينا نحن آحاد الناس العاديين ومئاتهم .

يعطيه هذا الحق ، انه أشد موهبة منا ، فى الانفعال والتصور والمعـــاناة .

يعطيه هـــذا الحق ، أنه أشد قدرة منا على التعبير ونقل التجربة من داخل ذاته ، الى داخل ذواتنا . ويعطيه هذا الحق ، شىء آخر ، شديد الخفاء شديد التأثر ، ذلك هو طلاوة النبرة العاطفية أو طلاوة

النبرة الفنية . فنحن نقـرأ له لانه يعطينا شيئا طازجا ، ليس من المألوف أن يتكرر فى واقع الحياة .

ولو أحصينا عدد القصص القصيرة التى أذاعتها المطابع ، ونشرتها الصحف ، وقدمتها الاذاعات ، لوجدنا هذا العدد يبلغ الملايين ذلك أن القصة القصيرة ، ثمرة الطباعة أريد بها أن تخطف اهتمام القراء ، وأراد لها الادباء أن تثرى فنون الادب .

وما تزال تلك هى حالها . فهناك قصص كثيرة ، لاتدخل دائرة الادب ، وهناك قصص قليلة ، تعتبر من نماذج الادب الرفيع .

* * *

ولا أظن أن الكتابات الاولى لرجال مثـل « زولا » و « لويس أستيفينسون » و « ادجار ألن بو » و « آرثر شفايتزر » و « اناتول فرانس » قد وضعت غار الادب على جباههم عند ظهورها .

وما أظن أن رجلا مثل شارلز ديكنز كان يتعمـد الادب ، حين نشر الحلقات الاولى من رواياته فى الصحف السيارة . لقد كان هذا الفن ، أثناء القرن الماضى ، ينتزع لنفسـه « اعتراف » الجمهـور بطلاوته ، ثم صار ينتزع لنفسه « اعتراف » النقاد ودارسى الادب بقيمته . وقد حدث شىء شبيه بهذا ، فى تاريخ القصـة عندنا ـ فمطابع القاهرة ، اخرجت للناس ، ترجمات لبعض الاعمال القصصية أثناء النصف الثانى من القرن الماضى . وبعض الكتاب ، حاولوا أن يقلدوا الآداب الاوروبية ، فأنشئوا فصولا قصصية ، كانت تمتـاز بقلة العدد وقلة الحظ من المستوى الفنى ، وكانت تمتاز ـ فضلا عن هـذا ـ بأنها متأثرة بالمقامات . وفى مطالع هذا القرن ، حاول ابراهيم المويلحى ثم محمد المويلحى ، ابداع هذا الفن الجديد ، لكنهما لم ينجحا فى فرضه على الحركة الادبية ، أو الكتابة الصحفية عامة . ثم أن اعتراف الدارسين بأدب القصة القصيرة ، يعود الى سنوات ماضية . فليس من الاسراف ، اذن ، أن نقول أن عمر القصة القصيرة فى أدبنا ، لا يتجاوز حدود هذا القرن ، واذا تجاوزها ـ بشىء من التعميم ـ فلن يرتد كثيرا الى الوراء . وليس من الاسراف ، أن نقول

ان البحث فى أدب القصة ونقدها ، بحث حديث بالنسبة للدراسات الادبية العربية .

غير أن حداثة هذا الفن لدينا ، تدعو الى التأمل فى أنواعه ، وتقدير مستواه ، أكثر مما تدعو الى الاعراب عن نقط الضعف فيه . ذلك أن حصادنا من القصة القصيرة يغرينا بأن نعقد المقارنات بين النماذج الرفيعة منه ، والنماذج العالمية المعروفة .

لقد استطاع كتاب القصة ، قبل الحرب العالمية الثانية ، أن يصلوا بها الى مستوى النضج فى أحيان كثيرة . وأن يجذبوا اليها اهتمام الباحثين الاجانب . واستطاع كتاب القصة بعد الحرب العالمية الثانية ، أن يزيدوها عددا ، وأنواعا ، وأن يفسحوا لها الآفاق الجديدة .

* * *

وكان الجانب الاوفى من القصص ، يتناول حياة المدينة ، فى شتى صورها ، فالكاتب يختار موضوعه وأحداثه ، من جو الحضارة الحديثة ، يصفى هذا كله أو يقدمه ، دون عناية بالصقل ، يختار أبطاله من الطبقات العالية ، أو من غمار الناس ، لكنه لا يخرج — فى غالب أمره — على دائرة من يقرأون له ، وكأنه يطبق القاعدة الصحفية الأنورة ، والتى تقول ، ان خير الكتابات وأنجحها تتناول حياة القراء .

لم يكن ثمة اتجاه واضح قوى ، الى حياة من لا يقرأون الكتب والصحف ، ومن لا يقرءون القصص والادب .

كان من النادر ، أن يفرد كاتب صفحات مجموعته القصصية ، للفلاحين على اطلاقهم ، أو للمغمورين الضائعين من الناس .

ولعل ميزة هذه المجموعة ، انها تتحدث — على نحو من الانحاء — عن حياة الفلاحين فى بعض قرانا .

وهذه الميزة ، تعطيها مكانة ، وتحملها مسئولية .

وأما المكانة ، فهى تلك التى نريد أن نرى فيها ، كتاب قصة عديدين ، يتأثرون حياة الفلاحين ، ويعترفون بالرابطة الروحية والوجدانية الكبيرة ، التى ينبغى أن تربط بين القرية وبين أبنائها من المفكرين والفنانين .

وأما المسئولية فهى تلك التى تجعلنا ، نريد من الكاتب أن يحملنا معه الى مستويات رفيعة من الفن ، حين يعالج حياة الشعب فى المدينة أو حياة الفلاحين فى الريف .

فالادب الجيد ، لا يعترف بأواسط الامور .
هو لا يعترف بالمكانات العادية والمواهب العادية .
ولعله فى هذا أن يتشدد غاية التشدد . فاما أن يقدم للاديب عملا متفردا ، نعجز عن انشائه نحن الناس العاديين ، أو يقدم عملا عاديا فينكره الادب أشد الانكار وأقساه .

* * *

ولكن هذه المكانة ، لا تنال ـ فى العادة ـ اعتسافا أو من أول اقتحام .

ان تاريخ الادب ، حافل ، بمحاولات كتاب الرواية والقصة ، حين كان الواحد منهم يتم عمله القصصى ، ويدفع به الى غيره من النقاد والكتاب ، ثم يتلقاه بعد ذلك وقد اعترضوا عليه أشد الاعتراض .

يحدثنا جوركى طويلا عن تجاربه الاولى وعن الفشل المتكرر الذى لحق به ، وعن الطريق الشاق الذى سار فيه ، يخطىء ويتعثر ، ثم يتعلم ، ويصلح من هذه الاخطاء .

والامر ذاته نلقاه فى صور مختلفة ، حين ندرس حياة كتاب القصة فى القرنين الاخيرين . لقد كانت معاناة العمل الادبى ملقاة على أكتاف الادباء الناشئين ، يواتيهم الحظ ، فيجدون من يرعاهم ويأخذ بأيديهم ويرشدهم أو يواتيهم سوء الطالع ، فيضيع من اقدامهم الطريق ، ويشملهم النسيان .

ولعل مئات من كتاب القصة عندنا ذهبوا طى النسيان ، ولما يسمع بهم أحد ، لان أحدا لم يكن يمد اليهم يدا رحيمة حانيـة ، وهيئة ما لم تكن تعمد الى رعايتهم .

غير ان ظروف العمل الفنى ، فى بلادنا ، جاوزت ، تلك المرحلة السابقة ، الى مرحلة اخرى ، تمتاز بالرغبـة فى النهوض الفكرى والفنى . فهذه هى وزارة الثقافة تشجع الادباء الناشـئين على أن ينشروا انتاجهم الاول ، وفى يقينها ان النشر خير « وازع » فاما ان يدفع بالكاتب الموهوب دفعة قوية الى الامام ، أو يساعده على ان يعرف « حجم ملكاته » فيترك الميدان لمن هو اكثر موهبـة منه ، واغزر تصورا ، وأقدر تعبيرا ، وارسخ قدما .

* * *

ومجموعة « نساء فى القرية » التى نقـدمها للقارىء ، ليـست أول ما يصل من انتاج المؤلف الى القراء .

لقد سبق لصاحبها أن اذاع فى الصحف اليومية ، قصصا من تأليفه . وسبق له ، أن نشر مقالات متفرقة .

وكاتب هذه المجموعة ، كما يبـدو من سياقها ، متأثر بحياة القرية ، هذا التأثر الذى يدعونا الى تقديره من ناحية والى تحذيره من ناحية ثانية . فالامر الواضح ، أنه يحدثنا عن حياة قرية بذاتها ، اغلب الظن انها قريته هو ، ولعلنا ، نشعر اثناء قراءة المجموعة ، بأن الكاتب ، أدخل « ذاته » فى سائر صفحاتها فجعل يخاطبنا بضمير المتكلم كما حدث ذلك فى «السيارة الحمراء » أو ساق الينا الحدث النفسى ، بأسلوب الحوار الداخلى ، كما نرى هذا فى قصة « ليس بالخبز وحده » و « فى ليلة واحدة » وهـذا الاسلوب ، لا يفترق كثيرا عن أسلوب المتكلم المباشر ، عند تحليل الاثر النهائى للقصة . ولعلنا نشعر ، الى ذلك ، أن الكاتب لم يوسع على نفسه ، كما كان ينبغى ان يفعل ، فجعل بطلات قصصه ، دائرات حول ضمير المتكلم ، فهذه « خالتى فهيمة » فى قصة « السيارة الحمراء » ، فاذا انتقلنا الى قصة « ليس بالخبز وحده » وجدناها وقد صارت « خالتى حميدة » وعندماننتقل الى قصة « تعاونية » نقـرأ انها « خالتى أم محمد » .. وفى قصة « فاطمة العبيطة » نلاحظ انها « خالتى عايشة » .

ولعل ايحاء كلمة « خالتى » المتكررة ، أن يحقق أثرا مضادا ، لما يريد الكاتب . فالكاتب ، يريد ـ فيما نظن ـ أن يحول الينا احساسه بحياة تلك النساء الثلاحات .. ولكن القارىء ـ فيما نظن كذلك ـ يريد أن يعرف الابطال والبطلات معرفة شخصية مباشرة ، ليس فيها وسطاء . ولعل الحوار الداخلى فى قصة « فى ليلة واحدة » وغيرها ، أن يحمل الى القارىء الاحساس بثقافة المؤلف ، أكثر مما يحمل اليه من وجدان أبطال هذه القصص أو من حقيقة اللحظات النفسية التى يمرون بها .

وأما التحذير الذى يخطر لنا ، فهو التحذير من الرتابة . ذلك أن كثرة كثيرة من الادباء الناشئين يطرقون موضوعات بعينها ولا يستحدثون آفاقا جديدة .

ولعلنا ، نحب ، أن نجد عند هؤلاء الادباء ، ما نفتقده فى الحياة الواقعية ، من تفرد .

* * *

تبقى بعد ذلك ملاحظة على « خطابية » الاسلوب ، فالذى يستخدم ضمير المتكلم أو المونولوج الداخلى يتعرض للاصابة بالرنة الخطابية الجهيرة .

واحساسنا ، أن بعض قصص المجموعة حافلة بهذه الرنة . ولقد كان الكاتب ، يستطيع أن ينجو من هذه الرنة ، لو أنه عمد الى أشكال أخرى من الصياغة والتركيب الفنى .

ومع هذا كله فالمجموعة الراهنة تستحق من القارىء التقدير والتأمل فهى تجربة كاتب ، جاء من القرية ، فلم يضع القرية وراء ظهره ، وتجربة أديب ، حاول ـ على نحو من الانحاء ـ ان يحل مشكلة الحوار بين الشخصيات الادبية فاتجه كثيرا الى صقل الالفاظ الدارجة والبسها ثوبا فصيحا . ولعل القارىء ، أن يضع هذا الجهد فى الميزان ، ثم يحكم على جودة الحوار ومدى هذه الجودة .

والكاتب ، يعيش قصصه ، وقد نفقر له ـ فى هذه المجموعة الاولى ـ أنه لم يتجاوز نطاق نفسه كثيرا ، ليعطينا فنا قصصيا متنوع الاساليب متعدد الاشكال .

* * *

واذا ظن القارىء أن وظيفة كاتب المقدمة ، هى أن يعطى « بطاقة تزكية » لكاتب المجموعة فما أبأس حظ كاتب المقدمة .

المفروض فى كتابة المقدمات ، أن يقدم صاحبها ، رأيا فيما اشتملت عليه المجموعة من قصص ، فاذا اثار هذا الراى اهتماما او اثار نقاشا وجدلا ، او اثار سخطا واعراضا ، او اثار تقديرا وعناية فقد حقق الغاية منه .

ولست اضع القارىء ، فى موضع التحكيم بل اضعه فى موضع الاسترشاد . وانصحه بأن يمر مرورا سريعا بهذه المقدمة ، ويقرأ لنفسه قصص المجموعة ، فاذا أراد أن يستطلع راى المقدمة ، فذاك من حقه ، واذا أراد أن يستفتى بما يرى هو فذاك من حقه . فالاصل فى العمل الفنى ، أنه هو ذاته الفيصل والمحور . واما آراء النقاد ، فأضواء ، تحاول الشرح والتقييم .

وفرق كبير بين الجوهر والضوء وبين المحور والدوائر .

وفرق بين أن نقيس المجموعة الى غيرها من المجموعات التى ينشرها الادباء الناشئون وبين أن نقارن بينها وبين الاعمال التى جادت بها ملكات الكتاب المجربين .

* * *

واذا كان لى أن ادعو الادباء الناشئين ، من كتاب القصة الى شىء فانى ادعوهم ، فى غير تردد ، أن يتعرفوا الى الانتاج الادبى الرفيع فى هذاالفن سواء هذه الآثار التى ظهرت باللغة العربية أو تلك التى اذيعت فى اللغات العالمية الكبيرة . فموهبة التصور لا تكفى وحدها ، والرغبة فى التعبير عن هذه الموهبة لا تكفى وحدها ، وطلاوة الاسلوب لا تكفى وحدها ، بل ينبغى أن يسيطر كاتب القصة على هذه الانحاء جميعا ، وان يعمل عملا دائبا من اجل تحقيق مستوى رفيع من « الخلق » وذلك بأن يتأمل الحياة ما استطاع ويتأمل النفس البشرية ما استطاع ويتأمل الاعمال الادبية الرفيعة ما وجد فى نفسه ، وفى وقته ، وفى عزيمته ، القدرة على التأمل . ولابد له ، من أن يجد هذه القدرة . فالفن لم يعد ، ومضة طارئة ، بل صار قوة خالقة لا تعرف الملل . وظروف الابداع الفنى الراهنة ، تحيط ادباءنا وفنانينا ، برعاية لم يكن سابقوهم يجدون مثلها ، ومن حقنا عليهم ، أن ننتظر منهم ، تحقيق مستوى ارفع ، ونتائج اكبر ، والارتفاع بتقاليد هذا الفن القصصى ، الذى اصبحت له الصدارة بين فنون أدبنا العربى الحديث .

رشدى صالح

السيارة الحمراء

منظر خالتى فهيمة من الصور التى لاتبرح مخيلتى ، منظرها وهى تجلس بعيداً عن منازل القرية المحترقة ، فى ظلام الليل وحولها أطفالها الثلاثة الصغار ، اليتامى . كانت النيران قد اشتعلت فى منازل القرية ، وساعدها القش الكثير الذى يتكدس فوق المنازل ورياح الشتاء الباردة حتى أتت على كل شىء . وكانت سقوف المنازل متآكلة سوداء يتصاعد منها الدخان ، والأبواب وقد اختفت تماماً لتترك أفواه البيوت فاغرة يظهر منها أثاث بسيط متآكل متفحم كأنما هو أسنان متآكلة لعجوز فقير .

وانتشر الناس ، رجالا ونساء حول القرية المحترقة كأنما هى جثة جريح فى أحد الحوادث . واختلطت المواشى التى أخرجت من المنازل سريعاً بالأثاث الذى أمكن إنقاذه . . . الخبز . . . والدقيق . . . والأغطية وقطع من الأخشاب . . . وأذرة . . . .

أما خالتى فهيمة فقد جلست بعيداً فى ناحية وليس حولها شىء من الأثاث والحبوب أو المواشى أو حتى الخبز . لم تكن قد خرجت من الحريق بشىء من هذا . كل ما استطاعت إنقاذه هو . . . أطفالها الثلاثة فقط ، أطفال صغار لم يتوقفوا عن البكاء والصراخ منذ استيقظوا فزعين من نومهم . أما خالتى فهيمة فقد كانت تئن فى انسحاق ثم تبدأ مرة واحدة فى الصراخ ولطم وجهها بقوة . . .

وتتجدد الأحزان القديمة كلها . . . وتبكى المرأة زوجها والأبناء الذين ماتوا لها من قبل . . . . بل وتتذكر أباها الذى مات وهى صغيرة فتزداد لطماتها على وجهها قوة . . . .

أبداً لا يبرح مخيلتى منظر المرأة وقد تمزقت ملابسها وهى تبكى وتنوح وحولها أطفالها الثلاثة المفزوعين . . .

تذكرت خالتى فهيمة فوراً وضجيج السيارة وقد بدأ محركها يدور استعداداً للانطلاق يتضخم داخل جدران المبنى . ويبدو

أن السيارة كانت فى عجلة من أمرها إذا كانت أصوات الرجال تتردد وهم يسرعون كل بدوره إلى السيارة ، ورئيسهم يصدر أوامره فى كلمات متلاحقة موجزة .

وكان أحد الجنود قد وقف على باب المبنى لتنظيم خروج السيارة وانتظامها مع حركة المرور المتلاحقة .

وكان المارة قد انتبهوا إلى الحركة غير العادية فتجمعوا سريعاً حول المدخل ليشاهدوا كعادتهم هذا المنظر الذى لا يرونه كل يوم . وكانت تعليقاتهم تتصاعد إعجابا بالسرعة والنظام . . . وصرخ طفل صغير ينبه أباه إلى جندى كان ينزل مسرعا على عامود وسط المبنى . . . وكان الطفل يعتقد أن الجندى قد وقع من الدور العلوى . . .

وبعد لحظات . . . كانت السيارة قد أكملت استعدادها وبدأت تتحرك ، ثم سرعان ما انطلقت من المبنى بما عليها من سلالم وخراطيم للمياه ورجال أقوياء سمر الوجوه يرتدون ملابس قاتمة وعلى رؤوسهم خوذات نحاسية ضخمة وكأنما هم من فرسان العصور الوسطى .

وتصاعدت أصوات من الجمهور المتجمع على جانبى المدخل ،

وقد أراد كل منهم أن يساهم فى خروج السيارة سريعاً . كلهم كان يريد إفساح المرور للسيارة وكأنه جندى للمرور . وتوقفت السيارة قليلا ودقات الجرس تتصاعد عالية منذرة بالخطر والعجلة ، ثم انطلقت مرة واحدة . وكانت السيارات المارة فى الطريق تميل إلى جانب حتى تفسح الطريق ، وركابها يدورون برؤوسهم ويتطلعون إلى السيارة الحمراء وكأنما سيعرفون من منظرها ما الذى حدث وأين ؟

وفجأة انطلق جندى من داخل المبنى وجرى مسرعا خلف السيارة . إنه من القوة التى يجب أن تخرج معها ، ويبدو أن السيارة خرجت قبل الموعد المحدد لخروجها ولم تنتظره . كانت الحالة خطيرة وعاجلة جداً .

وتصاعدت أصوات الناس جميعاً فى لهفة تنادى السيارة حتى تتوقف لتلتقط الجندى الذى كان يجرى بكل قوته وبينه وبينها خطوات قليلة . ولم تهدىء السيارة من سيرها بينما اندفع الجندى بجسده للأمام وأصوات الناس تشجعه وتنادى السيارة بقوة ولهفة .

ووجدتنى أشارك الناس فى النداء والصياح وقد انتابنى حماس شديد ولفحت وجهى حرارة غير عادية . وكان الجمهور الواقف

قد اندمج كل أفراده فى بعضهم كأنما أصبحوا كتلة واحدة لها هدف واحد هو أن تهدىء السيارة من سيرها حتى يستطيع الجندى أن يلحق بها .

كان أملنا جميعاً فى ذلك الوقت هو أن يلحق الجندى ، جندى المطافىء ، بالسيارة الحمراء ، سيارة الحريق .

واندمجت فى الصياح ، بينما تلاحقت الصور والذكريات تأخذ بتلابيب عقلى وتجذبنى بعيداً إلى الخلف ، إلى أعماق الذاكرة . . . عندما كنت طفلا صغيراً فى القرية .

فى ذلك الشتاء الماضى البعيد وقد أجبر البرد القارس فلاحى القرية على الاختفاء فى منازلهم مبكرين ، للاحتماء بدفء الفرن وضوئه من الهواء البارد الذى يتسلل إلى عظامهم ، ومن الظلام الذى كانت تختفى فيه القرية بأجمعها . فى منتصف ذلك الليل انطلقت صفارة الخفير مزعجة مستمرة كأنما هو طفل يلهو بلعبته الجديدة ولا يتركها . ولم تكن الصفارة لتنطلق إلا فى حادث سرقة أو قتل أو حريق .

وبدأت أبواب بعض الدور تفتح فى تردد ثم فى سرعة والرجال ينادون من خلفها ابراهيم الخفير . . .

— ما الذى حدث . . . يخرب بيتك يا شيخ . . . الدنيا برد .

وبعضهم يصيح فى غضب :

— هل حمل أحد القرية وسرقها بأجمعها ؟ . . فى داهية . . .

وجرى إبراهيم وهو ينفخ فى صفارته بقوة حتى وقف على باب الحارة التى تشق القرية ثم أخذ يصيح :

— اطلع انت وهو . . . بسرعة . . . كل واحد منكم ينام فى بيته كالحريم بينما بيوت الناس تأكلها النار . . . اطلع ياندل من البيت . . .

ولو أن ابراهيم سب أى من أهل القرية فى غير هذه الحال لتصاعدت ألفاظ السباب من الجميع . لكنهم عندما سمعوا كلمة النيران تساءلوا وهم يخرجون إلى ظاهر بيوتهم ، وبعضهم يبدأ فى الجرى . . .

— أين يا ابراهيم . . . فين ياولد . . .

— النار أكلت نصف عزبة الشيخ رجب وأنتم نيام فى دفء الفرن . . .

وأسرع الرجال يجرون إلى خارج القرية وهم ينادون بعضهم البعض . كما أسرعت النساء بحمل جرارهن وجميع الأوانى التى يمكن أن يحمل فيها الماء من المصرف وانطلقن فى الجرى خلف الرجال وصرخاتهن تدوى فى ظلام الليل ، وتغطى على صفارة الخفير ، حتى ينتبه أهالى القرى المجاورة لما يحدث لجيرانهم . والناس لبعضهم على أى حال ، والذى ينجد جاره اليوم قد يحتاج هو للنجدة غداً . والحرائق كثيرة بين القرى يزيد فى كثرتها أكوام القش والحطب التى تتكدس على سقوف المنازل وتلك المصابيح الصغيرة التى يستعملها أهل الريف فى الإضاءة ، مجرد علبة من الصفيح لها شريط من القطن تصلح لإضاءة بيوت القرية .

وكنت أجرى مع الناس وأنكفىء فوق كتل الطوب التى تملأ جسر المصرف ، والرجال جميعاً يجرون ويتسابقون من جميع الجهات حتى يصلوا القنطرة الصغيرة المقامة فوق المصرف ثم يتجهون ناحية النار التى كانت تتصاعد فى ظلام الليل وتبدو واضحة لعدة أميال ، كأنما هى شمس صغيرة ملتهبة تضىء ما حولها .

وكان كثير من أهل القرى المجاورة قد وصلوا إلى مكان الحريق وأقاموا صفاً طويلا بين المصرف وبين المنازل المشتعلة .

كانت المرأة تقف بجوار الرجل والحدث الصغير إلى جانب الرجل الكبير والأوانى تنتقل فارغة ومملوءة بالمياه من يد لأخرى فى لهفة . وتلقى المياه على النيران فتهبط قليلا ثم تعود للصعود ببطء ثم تزمجر وهى تأكل كل الأخشاب فى قرقعة مزعجة .

وتجرى النساء وعلى رءوسهن الجرار ، وصراخهن مع ذلك لا يتوقف . ويتجمع خلق كثيرون ، من جميع القرى . وتتكون صفوف آدمية أخرى ، وتغرق المياه الأرض حتى يصعب السير فوقها كما تغرق الملابس حتى تلتصق بالأفخاذ والصدور والحركة مع ذلك دائبة سريعة فى انتظام . لقد رأى الجميع هذا المنظر من قبل وشاركوا فى مثل هذه العملية مرات ، وهم يأخذون مواقفهم بلاد تردد .

وبعضهم قد تسلق جدران المنازل التى تأكلها النيران وأخذ يضرب النيران بعصاه حتى يحد من انتشارها ، بينما البعض الآخر أخذ يلقى فوقها بأكوام من التراب والطوب ، وآخرون انصرفوا إلى أهل بقية منازل القرية يخرجونهم إلى بعيد ثم يعودون إلى الماشية وإلى أثاث الفلاحين البسيط وخبزهم وحبوبهم .

كل هذا يجرى فى ضجة وهرج لا يمكن أن يحدث إلا فى هذه

الحالة فقط . . . الصراخ يختلط بالكلمات والبكاء وصوت النيران والمياه والحيوانات . والجميع يطلبون المياه ، وهى أغلى شىء فى ذلك الوقت . . . والنساء يصرخن والأطفال يبكون والحياة كلها قد أصابتها كارثة مروعة .

* * *

وبعد ساعات من هذا الفزع الأكبر هدأت النيران شيئاً فشيئاً ثم ، وأخيراً غلبت على أمرها واختفت تماماً . كأنما هى وحش عاد إلى عرينه أو شيطان أعيد إلى القمقم .

وأخذ هذا الجمع الكبير يتجول بين الأطلال والخرائب التى كانت قرية من قبل وكأنهم أفراد جيش منهزم بعد المعركة . كانوا قد تغلبوا على عدوهم الأكبر ثم انصرفوا يبحثون عن خسارة كل منهم . منهم من فقد ابناً أو بنتاً ، والكثير منهم فقد كل أثاث منزله . . . والحبوب التى كان يعتمد عليها لطعامه طوال العام .

— من أين يأكل الشهور والأيام الطويلة ؟

— الحمد لله على كل حال .

— قضاء أخف من قضاء . . .

هكذا كانوا يتحدثون وهم يبحثون خسائر القرية المنكوبة ، وكل منهم يستضيف أفراداً منهم فى قريته ليحيا معه حتى يستطيع التصرف فى أمر حياته ، كأنما هى هجرة إسلامية جديدة .

أما خالتى فهيمة فقد رفضت كل العروض وأبت أن تتحرك بأطفالها من جوار القرية . وتشبثت خالتى فهيمة بأطفالها الثلاثة الذين انضموا تحت جناحها مفزوعين . وعندما حضرت بعد كل هذا ماكينة الإطفاء الصغيرة التى تعمل باليد وجد أفرادها خالتى فهيمة جالسة كما هى .

* * *

وترك الحريق ذكراه المريرة فى قلوب الرجال والنساء ، واضطرهم إلى سنوات من الشقاء والكدح لتعويض الخسارة . أما الأطفال — وأنا منهم — فقد ترك لهم انطباعات عميقة من ذلك الهول والفزع ، انطباعات لا يمكن أن تنسى .

وكانت صور الحريق تلك تتلاحق مسرعة فى ذاكرتى ، وجندى المطافىء يجرى خلف السيارة الحمراء ، والناس جميعاً ، وأنا

منهم يصيحون بأعلى أصواتهم فى حرارة وكأنهم سيفقدون أعمارهم لو لم يركب الجندى السيارة . وظللت أصيح بقوة حتى بعد أن لحق الجندى بالسيارة وهى تهدىء من سيرها عند إشارة المرور القريبة . كانت صورة خالتى فهيمة وهى تجلس فى ظلام الليل وبرودته وحولها أطفالها الصغار لا زالت فى ذاكرتى . وكانت منازل القرية المحترقة وأبواب الدور التى تآكلت وظهر خلفها ظلام مطبق ، والدخان يتصاعد من كل مكان . . . كان كل هـذا قد خرج من أعماقى بعد هذه السنين الطويلة ، وكان يدفعنى إلى الصراخ والنداء على السيارة حتى بعد أن لحق بها الجنـدى الذاهب لأداء واجبه وإطفاء الحريق .

* * *

وتغيرت الأحوال ، ولم يعد القش والحطب مكدساً على المنازل كما كان فى صباى ، وأصبح بالمركز سيارة للإطفاء ، لـكن صورة خالتى فهيمـــة فى أساها وحزنها آلامها وضعفها لم يلحقها أى تغيير .

ليس بالخبز وحده!

ـ يخرب بيتك يا واد يا شرقاوى ، خمسة أرغفة ولم تشبع ، ماذا جرى لك ؟ كل رغيف يخرج من الفرن تلتهمه وكأن بطنك هذه لا تمتلىء . كأنك السيد البدوى الذى يقولون أنه كان يأكل طعام مئة من الرجال . . . ولكن أين أنت من السيد البدوى . ومن أين تجد طعام مئة رجل . . . يا شيخ حرام عليك ! ! هل تجد ما يكفيك من طعام وأنت رجل واحد . . . وأمك وأختك ؟ . . . إنك تجرى من هنا إلى هناك وتعمل من صباحك إلى مساك . . . وتقبل أى مقاولة لحصد الأرز أو قلع حطب

القطن ليلا . . . فى ظلام الليل والناس نيام والهـدوء يسيطر على الدنيا ولا يخرج على سلطانه إلا صوت الضفادع والصراصير . . . حتى فى هذا الجو تقبل العمل وتقوم به إلى الفجر لتنام ثم تستيقظ بعد ساعة أو اثنتين لتمارس ما يمارسه الفلاحون من عمل . . . كل هذا من أجل إطعام أمك وأختك هذه التى تصنع لك الخبز الآن . أنظر . . . توقف عن التهام الخبز قليلا وانظر إليها . . فى جلستها تلك أمام الفرن . . . إنها تلقى بعض الحطب والقش فى النيران . . ثم تقترب من فوهة الفرن قليلا قليلا وهى تتراجع بوجهها إلى الخلف خشية هذا اللهب المتصاعد . . . ثم تمد يدها إلى آخرها . . لتخرج أحد الأرغفة ، طرياً ، تتصاعد منه الحرارة . . . وتمد يدها به إليك صامتة فى تضحية . . وكأنها التى ستأكله وتستمتع بمذاقه الطرى الدافىء اللذيذ . . . ثم تعود إلى الإناء أمامها لتقطع جزءاً من العجين تعالجه بين يديها ثم تنثنى بشدة أمام الفرن . . . تمد يدها إلى نهايتها . . وتبعد بوجهها عن النيران . . . امرأة حقيقية أختك هذه يا ولد يا شرقاوى . أجمل من كل نساء القرية . . . هل تقول هذا الكلام لأنها أختك ؟ والقرد فى عين امه غزال . . كما يقولون . أبداً والله . . . أنظر . . . إنها أمامك . . . أول ما يظهر منها خدودها التى أصبحت فى لون الورد من حرارة الفرن . . وجسمها

هذا كله وهى تجلس على أطراف أصابعها وتتثنى يميناً ويساراً وقد انصرف انتباهها كله إلى الخبز الذى تصنعه . . ومع هذا لم يتقدم لها أحد . . . كلهم يعجب بجمالها وقوامها وكلهم يهفو إليها ويتقرب منها ويحاول أن يكون بجانبها عند ما تقف مع الأنفار فى الحقل .

. . . ابنة حلال حقيقة أختك هـذه يا شرقاوى . . . كأنها رجل . . . لا أحد يجرؤ على أن يقول لها كلمة كده أو كده . . . ولـكن لم يتقدم لهـا أحد بعد . . . إنها فقيرة لا تملك شيئاً . . . وأنت شقيقها ... ولى أمرها ... الذى ستقبض مهرها ... وتجهز لها . . . فقير أيضاً . . . لا تملك شيئاً . . . من يتقدم لك ؟ الناس جميعاً تبحث عن صاحب القروش . . . الذى يقبض المهر ويجهز بأكثر منه . . . هل فى مقدورك أنت أن تفعل هذا . . . ؟

يا شيخ . . . النهم أرغفة الخبز ولا تخبر أحداً بما يدور فى عقلك الآن . . . ولها الله أختك هذه يتولاها برحمته .

ولـكن لم الخجل ؟ الـكل يعرف أنك فقير . هل الفقر عيب ؟ إنك رجل بين الرجال . . . تعمل وتـكدح . . . ولـكن ماذا تفعل وكل هـذا العمل والـكدح لا يرفعك درجة واحدة عن مرتبة الفقراء . كل ما تملـكه هو . . هو هذه الأذرع التى ترفع الفأس وتمسك المحراث وتبذر الحب . . .

لك يوم يا بنى . . . من يعرف . . . يقولون أنه سيأتى يوم على الفلاح يصبح فيه أحسن مما هو الآن . . . متعلم . . نظيف . . غنى . . . متى يكون هذا يا شرقاوى ؟ وهل يمكن أن يحدث هذا حقيقة . . . الله قدير على كل شىء يا بنى . . الله ؟ نعم . إنه يحيى العظام وهى رميم . لكن الله لم يغير حال الفلاحين منذ مئات السنين . . ! ! هل سيفعل الآن ؟

تغيير الأحوال يجب أن يقوم به الناس يا شرقاوى . . . هكذا يقول سيدنا الشيخ أيضاً . . . إنك لا تذكر كلماته لأنها ضخمة كبيرة . . . آه . . . ماذا يقول . . ؟ أعصر مخك يا واد يمكن تتذكر . . . أبداً . . . غير ممكن . . . إنه مخ لا يتغذى إلا على الخبز . . . مخ مظلم يا شرقاوى . . . لو كان يأكل بطاطس ولحم وفراخ كان زمانه فهم الدنيا كلها . . . العالم كله والذى خلقك . . . ذنبه إيه المخ . . . ؟ النبات من غير سماد ينمو ضعيفاً أصفراً . . . على قد لحافك يا بنى . . . لكن من يدرى قد يأتى اليوم الذى يتحدثون عنه . . . يوم الفلاح . . .

الرغيف اقترب من النهاية . . . على مهلك يا شرقاوى . . . لقمة . . لقمة . . . ما الذى حدث لك يا ولد . . ؟ تأكل وكأنه آخر زادك . . تلتهم نصف الرغيف مرة واحدة . . . يجب

أن تأكل بذوق كما يأكل الناس جميعاً . . . بل يجب أن تتوقف عن الأكل . . . يكفى ما دخل بطنك . . . أختك هذه التى تصنع الخبز لم تذق طعمه منذ الصباح ... إنها تريد أن تملأ بطنك أنت ... و بطنك لا تريد أن تمتلىء . . . وأمك . . . قد غلب عليها النوم بجوار الفرن أيضاً . . . جلست تنتظر حتى تكتفى أنت ثم تأكل . . . و لكنك لا تشبع . . . كل همك فى بطنك . . . لا تفكر إلا فيه . لكن ماذا تفعل يا واد يا شرقاوى . . ؟ ماذا أخذت من الحياة ؟ حتى اللقمة لا تأكلها . . ؟ و لقمة إيه ؟ ! لقمة خبز فقط . . ! ! من أجل هذا تلتهم الرغيف بعد الرغيف . . . الملح لا ينتهى ، قليل منه يكفى . . . أما الخبز فأرغفته تدخل بطنك الواحد بعد الآخر . . لماذا تقول هذا الكلام ؟ أتخجل لأنك تمد يدك لتتناول الرغيف السادس من عائشة ؟ لكن لم الخجل ؟ هل هذا شىء جديد . . . كل يوم تأكل أربعة أرغفة فى الصباح و خمسة عند الظهر ومثلهم فى المساء . . . إنك تريد أن تملأ بطنك فقط . . . هذا كل ما تريده من الحياة . . .

واليوم ، الخبز دافىء طرى لذيذ . . . يؤكل وحده بلا ملح ولا بصل . . . وأمك هذه النائمة تقول دائماً كلما رأتك تلتهم أرغفة الخبز . . . إذا حلا زادك فالتهمه كله . . . إلتهم يا ولد أرغفة الخبز . . . بطنك فارغ كأن لم يدخله شىء . . . وأنت لا تجد فى الحياة

شيئاً سوى الخبز . . . حتى الزواج لم تدخل دنياه بعد . . . لا زوجة ولا ولد . . . وحيد كأنك شجرة منفردة عند ساقية مهجورة .

ولكنك عرفت المودة والرحمة يا شرقاوى . . . ناعسة بنت عمك خليل . . . كنت تشعر نحوها بميل . . . كنت تتلهف على رؤياها . . . كنت تشعر بشيء لا يمكن وصفه . . . ولكنه هو المودة والرحمة . . . لا بد أنها المودة بين الرجل والمرأة التى تحدث عنها الله . . .

لكنها تزوجت يا شرقاوى . . . يخرب بيتك يا شيخ . . . أكنت تريد الزواج من ابنة عمك خليل أيضاً ؟ مرة واحدة . . . من أنت ؟ ومن تكون بين الرجال ؟ لا عندك فدان ولا بقرة ولا جنيهات . . . بماذا تتزوجها ؟ بيديك الفارغتين . . . حتى الخبز لا يوجد عندك الكفاية منه . . . الرغيف يخرج من الفرن إلى فمك مباشرة . . . وهناك أفواه أخرى تنتظره بلهفة . . . وأمك أعياها انتظار رغيف يتبقى منك فسقطت إعياء وغلب عليها النوم . . .

لماذا لم تترك لها رغيفاً تأكله يا جاحد . . . ألا تعرف فضل أمك . . . ؟ كان يجب أن تأكل هى أولا . . . ولكنها رفضت يا شرقاوى ماذا تفعل . . . ؟ أقسمت عليها ، وأقسمت . ولكنها ترفض . . . دائماً . . . إنها أمك يا ولد . . . وماذا تعرف أنت

عن قلوب الأمهات . . ؟ تجوع لتأكل أنت . . . هل رأيت من يفعل هذا غير أمك ؟ ربنا يقدرك و يعطيك من أجل هذه الأم . . . ماذا تفعل لها يا شرقاوى لو فتح الله عليك . . ؟ ماذا تفعل لأمك هذه . . . ؟ كيف تجزيها . . . ؟ كنت أجعلها ترتدى حرير و تأكل اللحم و تعيش أحسن من أى امرأة فى القرية . . . و لكنك مغلول اليدين يا شرقاوى . . . أى والله . . . مجرد أفكار لا تستطيع تحقيقها . . . هكذا تردد لنفسك دائماً و لكنك لم تفعل شيئاً لأمك ، أو لأختك هذه التى تصهر نفسها أمام الفرن من أجلك . . ماذا تفعل يا بنى . . . ؟ تريد أن تفعل و أن تفعل . . . لكن يدك قصيرة . . . حاجة تغيظ . . ! ! !

* * *

سبعة أرغفة قضيت عليهم يا فجعان و لم تشبع بعد ! . . بطنك كله دود . . . ضرورى كله دود . . . و إلا أين يذهب كل هذا الطعام . . . إضحك يا شرقاوى . . . إضحك . . . من كام يوم كان عند العمدة ضيوف من مصر . . . و كنت تقف فى خدمتهم . . . و وضعت أمام كل منهم رغيفاً واحداً . . . أما أنت . . . ؟ ! الله يخرب بيتك يا شيخ . . . سبعة ! ! ؟

لكن . . . أيوه يا واد يا شرقاوى . . . أنت على حق . . .

ضيوف مصر كان قدامهم حاجات . . . وحاجات . . . ديوك رومى . . وحمام . . وفراخ . . . وحاجات كتير يا واد . . . حاجات عمرك ما سمعت إسمها ولا رأيتهـــا بعينك . . . لماذا يملأون بطونهم بالخبز . . ؟ والحاجات الحلوة من يأكلها ؟ أنت يا غشيم . . . ؟ ! حتى فى الأكل لا تعرف الطيب من الخبيث . . .

لكن أين هو الطيب . . . ومتى وجدته ولم آكله . . ! أنا لا أجد إلا هذا الخبيث . . . استغفر الله . . . العيش . . . هل وجدت غيره منذ أن عرفت الدنيا ؟ ! الحمد لله . . . الواحد يقبل يده ظهراً لبطن . . . إنه نعمة ربنا . . . وهناك من لا يجده . . . وتكذب ليه يا شرقاوى . . . أنت أيضا لا تجده أحيانا . . . واليوم . . . هذا اليوم نفسه . . . أمك وأختك لم تذوقا طعم الخبز منذ الصباح . . . كن صريحاً لم يكن فى منزلكم رغيفاً منذ الصباح . . . ولهذا تصنع أختك الخبز ليلا . . . وأمك ترقد بجوعها هناك . . . كان معك عشرة قروش . . أجرة الأمس ، والعشرة قروش لا تشترى قمحاً ولا أذرة . . .

واليوم اشتغلت بعشرة أيضاً واشتريت القمح ثم ذهبت به أختك إلى ماكينة الطحين وعادت لتصنع خبزها ليلا . . .

الكذب خيبة يا بنى . . . وعلى من تكذب . . . على نفسك

أم على ربنا . . . القروش التى تكسبها تذهب من فورها إلى الخبز.. لا شيء يبقى لثانى يوم . . . والمسألة ليست صعبة . . . إنها حسبة بسيطة سهلة . . . كل خمسة أيام عمل يمكنك أن تشترى بثمنها كيلة من القمح . . . ولكنكم أنتم الثلاثة تأكلون ما يزيد على الكيلة أنت وحدك تأكلها . . . وخبز القمح طرى لذيذ . . . إحمد ربك لأنك تجده . . . أما الأذرة استغفر الله . . . ثمنها أرخص صحيح . . . لكن كيف تأكل خبزها وحده . . . بلا أى طعام بجانبه . . . إنه خبز خشن جاف يقف فى الحلق . . .

ماذا تقول ؟ خبزها يقف فى الحلق ؟ فى حلقك أنت ؟ يا لك من كاذب مخادع . وهل يقف شيء فى حلقك هذا الذى يبتلع الدنيا بأكملها . . . ألا تخجل ؟ . . سبعة أرغفة . . . وفى يدك الثامن . . . وما زلت تأكل . . . إعطه لأختك يا فجعان إنها أيضاً لم تأكل . . . كل همها أن تأكل أنت وتملأ بطنك . . . إنها ترفض ولكن يجب أن تأكل . . . إغضب منها . . . أصرخ فيها حتى تأكله لتسكت بطنها هى أيضاً . . . . لا تقبل منها هذا الرفض . . . . إنها تفعل كل هذا من أجلك . . . حتى تأكل أنت . . . إنها تعرف أنك لن تشبع قبل ثمانيـــة أرغفة . . . لكن لا . . . يجب أن تأكل هى أيضاً . . . أنت تصرخ فيها لأسباب تافهة . . . أصرخ فيها الآن حتى تأكل . . . قل لها إنك شبعت . . . اعطها

الرغيف . . . نعم هكذا . . . شاطر يا ولد . . . هكذا يجب أن تفعل معها . . . من يدرى يا شرقاوى . . . عسى أن يجعل ربها حظها حسناً . . . يرسل لها ابن الحلال الذى يعوضها عن حياتها الشاقة معك . . . ربك يسمع يا بنى . . . إنهض . . . إنهض لتوقظ أمك أيضاً . . . لا تدعها على جوعها حتى الصباح . . . وهل ينام الجائع ؟ . . . قول لنفسك يا شيخ . . . أوقظها . . . بخفة يا ولد . . . نادى عليها . . . ها هى تستيقظ . . . لم تكن نائمة . . . الجائع لا ينام . . . كانت تدعى النوم فقط لتترك لك الخبز . . . أفعال أمهات يا بنى . . . ان تجزيها مهما فعلت يا شرقاوى . . . تبقيان على الجوع لتأكل أنت ؟ . . من يدرى يا بنى . . . قد يأتى يوم لاتجوعان فيه أبداً . . . قد يأتى يوم لايجوع فيه أحد أبداً . . . وقد يأتى اليوم الذى تجدون فيه طعاماً كثيراً مختلفاً ألوانه . . . إلى جانب الخبز . . .

سيجىء كل هذا يا شرقاوى . . . فى أعماقك هاتف قوى يجعلك مطمئناً إلى مجيئه . . . فى ذلك اليوم لن تعيشوا على الخبز وحده . . بل لن يحيا إنسان قط على الخبز وحده .

تعاونيـــة

عند ما يصفو الجـــو ويرق النسيم وتأخذ إناث العصافير والطيور فى مداعبة الذكور ، وعندما يزداد هدوء الحياة وتخف حدة الشمس تأخذ خالتى حميدة الجاموسة لنزهتها اليومية . وكأن جاموسة خالتى حميدة هذه كابنة صغيرة مرفهة لأحد الأثرياء ، أو كأنها عروس جديدة فى شهر عسل دائم يخرج بها زوجها كل يوم للنزهة والترويح عن النفس .

غالية حقاً جاموسة خالتى حميدة هـذه ، حتى إنها لو خيرت

بينها و بين عشر سنوات غالية من عمرها لتنازلت على الفور عن جزء كبير مما بقى لها من عمر على أن تبقى لها الجاموسة ...

حقيقة إن الحيوانات من أمثال جاموسة خالتى حميدة غالية عزيزة على أصحابها من الفلاحين ، إنها رأس مالهم الوحيد ، وعدتهم للزراعة ، و بغيرها لن يكون الفلاح سوى أجير يأكل من يده لفمه ، رغيف يوم بيوم ... يجد العمل أياماً و يتعطل بجانب جدران منزله أياماً أخرى ... لن يصبح حر نفسه أبداً ، و لن يصبح صاحب عمل مستقل ... لن يأمنه أحد على فدانين من الأرض يؤجره إياهما ... الجاموسة والبقرة هما حياة الفلاح ، كلهم يعرف هذا ... ومع ذلك فجاموسة خالتى حميدة أغلى من كل حيوانات العالم ... وأعز عليها من عينيها ...

وتسحب خالتى حميدة جاموستها من حبلها وتسير متمهلة ناظرة أمامها فى خط مستقيم لا تحادث أحداً ولا يحادثها أحد . لا تلقى تحية على رجل أو امرأة ... وكلما مرت على إنسان تمتمت من بين شفتيها ...

— الله أكبر ... من شر حاسد إذا حسد ... الله أكبر ...

وهى تدرك أن زينب زوجة عبد اللطيف عينيها صفراء ، تحسد

كل ما تراه وتجلب له النحس ألم تحسد خروف ابراهيم حتى طلب السكين وذبحوه ...؟ وبقرة أحمد أبو على ...؟ وزراعة عبد الجيد...؟ وتزداد تمتمة خالتى حميدة وكأنما تقيم حول جاموستها ستاراً حديدياً من الكلمات المقدسة ترتد عنده نظرات زينب الصفراء ولا تؤثر فى العزيزة الغالية ... وقد لا تستطيع خالتى حميدة كتمان مايملؤها من انفعالات فتصيح فى زينب بين الجد والضحك ...

— عينك يازينب ... الله أكبر منك ...

فتضحك زينب عالياً — والجو ساكن ولا أحد من الرجال يمر فى مثل هـذا الوقت — وتضحك حتى تكاد تستلقى على ظهرها وهى تردد ...

— ومن يحسد هذه المعزة ؟ .

ثم تضيف ساخرة كأنما تطمئن خالتى حميدة ...

— خدعوكى عندما قالوا إنها جاموسة ...

وتضحك خالتى حميدة وتسير فرحة مسرورة ... إن هـذه السخرية ان تضر الجاموسة ... إن الحسد والحقد والغيرة وتمنى الأذى أشياء أخرى غير هذه السخرية التى تنطلق من شفتى زينب ...

وعندما تخرج إلى الهواء الطلق بعيداً عن بيوت القرية تلقى خالتى حميدة حبل الجاموسة فوق ظهرها وتتركها ترعى كما تشاء على جسر الترعة أو إحدى القنوات الجانبية التى تخترق الحقول ... وتسير خالتى حميدة خلف الجاموسة ، تبطىء عندما تبطىء تلك وتسرع عندما تسرع ، وعندما ترى خالتى حميدة قبضة من الحشائش الخضراء الطرية بعيدة عن متناول الجاموسة تقفز فى طلبها أو تخوض مياه القناة وتجتثها من جذورها ثم تخلصها مما يعلق بها من الطين وتقدمها فوق راحة يدها فرحة سعيدة ... ولا تزال يدها ممدودة حتى تأتى الجاموسة على جميع الأعواد الخضراء ... كأنما كانت حميدة تعمل خادمة وأكثر ... لهذه الجاموسة ...

أبداً ، لا تفعل خالتى حميدة هذا مع ابنتها الصغيرة فتحية . البنت يتيمة ، مات والدها منذ سنوات ، وتركها وأمها — حميدة — وحيدتين تجاهدان يوماً هنا ويوماً هناك ، حتى استطاعتا بعد سنوات من الجهد ومن تربية الفراخ والدواجن أن تشتريا معزة أخرى ... سنوات طويلة من الكفاح اشترت بعدها خالتى حميدة جاموستها العزيزة هذه ... عجلة صغيرة قامت على تربيتها حتى كبرت وأصبحت جاموسة .

وتكاد الشمس تختفى ، ويعود الفلاحون من حقولهم وحولهم

وخلفهم الحمير والجاموس والبقر ... فتندمج خالتى حميدة بين صفوفهم تسير معهم تجاه مبانى القرية وقد امتلأت بالفرح والسعادة . . ويزيدها سعادة أن يحدثها أحد عن الجاموسة أو يبدى ملاحظة عنها ... إنها لم تأكل اليوم ... أو أن فى حلقها شوك يجب نزعه حتى تستطيع الأكل ... أو لا تجعليها تشرب من مياه المصرف لأنها ضارة بها ...

وتدخل الجاموسة إلى دار خالتى حميدة فتجد عشاءها حاضراً أمامها . . . كوماً من الحشيش الأخضر تمد رأسها إليه بين الفينة والأخرى . . .

كل حياتها تدور حول الجاموسة ... وكأنما تعيش خالتى حميدة من أجلها ... وفى ظلام الليل وقد نام الجميع — حتى الجن والعفاريت — تنهض خالتى حميدة من رقدتها وترفع جسدها فوق مرفقيها ثم تنصت . فإذا لم تسمع صوت الجاموسة تجتر طعامها قامت متلهفة حتى تصل إليها وتطمئن قلبها ...

* * *

وكان مرض الجاموسة أكبر صدمة توجه لخالتى حميدة ، كل آمالها ، الضوء الوحيد فى حياتها يكاد يخفت ويتلاشى ... كأنما

كانت هذه الجاموسة مصنعاً ضخماً يكاد يتهدم أو شركة كبرى برأس مال ضخم توشك على الإفلاس ، أو عشرات من الأفدنة سيطغى عليها البحر ، وكل برغوث على قدر دمه ... كما يقولون ...

فى اليوم الأول لم تأكل الجاموسة شيئاً ... رفضت الطعام وعندما حاولت خالتى حميدة أن تطعمها بيدها و تضع الطعام داخل فمها لفظته فى سأم ...

وفى اليوم التالى كانت ترقد على جانبها منهكة القوى وأنفاسها تتردد عالية فى صعوبة ... كأنما هناك جبل يجثم فوق صدرها .

وحاولت خالتى حميدة ... أن تطعمها ... أن تسقيها ... أن تعينها على النهوض ... ولكن ... ؟

وحضر الكثير من أهل القرية ليروا ما الخبر . وكثير منهم لم يكن ليحضر لو أن المريضة كانت خالتى حميدة نفسها ... ولكن المال غالى ... وروح الفلاح فى جاموسته أو بقرته ... وكلهم يعرفون كل شىء عن هذه الأمراض التى تصيب حيواناتهم ويعرفون كيف يعالجونها ... وتسمع خالتى حميدة و تنفذ ما يقوله هذا وذاك ... ثم تجرى فى الصباح الباكر إلى القرية المجاورة لتحضر « عمى حسين » الذى يفهم فى هذا الأمر أكثر من غيره .

ويفحص « عمى حسين » ويدقق ثم يجلس بجانب الحائط ويخرج

علبة صفيح ليصنع من محتوياتها سيجارة رفيعة لا تكاد ترى ... وأخيراً يصدر القرار ... يجب أن تكوى الجاموسة فى أسفل عنقها .

وتشعل النيران من الروث وتوضع فيها المناجل ... والرجال كثيرون ، يجلسون حول النيران ، وعمى حسين والجاموسة ... وعندما تتوهج المناجل يحضرون حبلا يقيدون به أرجل الجاموسة ، من خلاف ويمسك أحدهم برأسها بينما يجثم آخر فوق جانبها ... وآخر عند مؤخرتها ... ويمسك عمى حسين قطعاً من الخرق يلفها فوق يده ثم يتناول أحد المناجل ... وعندما يقترب من لحم الجاموسة تقفز تلك من الوهج المتقد قبل أن يصلها وقد اهتدت بغريزتها إلى مايراد بها .. ويجثم الرجال فوقها ... ويزداد عددهم ... ويحترق الشعر الأسود ثم يتوغل الحديد المحمى فى لحم العنق ويتصاعد دخان ... ورائحة نفاذة ...

ويتناول « عمى » حسين منجلا آخر ... وغيره ... ورابع ... فالكى يجب أن ينضج ، يجب أن يتوغل المنجل المحمى فى اللحم حتى يكون ذا فائدة ... وحتى لايتقيح ويضر الجاموسة ... ولكن هباء ... كل هذه الجهود هباء ... والعلاج بأجمعه ، وهو كثير لم يستطع رد القضاء ... حتى دموع خالتى حميدة المسكينة

ولوعتها لم يلن لها قلب السماء ... ولم تثر فيه نأمة رحمة ... وتصرخ ... لم يارب ؟ ماذا فعلت ؟ وكأنها — خالتى حميدة — تعتقد أن البلاء لا يكون إلا عقاباً لذنب ...

— ولكن أنت يامن لا تستطيعين إيذاء بعوضة ماذا فعلت؟ هكذا تفكر من بين دموعها .

وتعود للصراخ والبكاء . . . وتبكى فتحية الصغيرة بجوارها ، ولكن . . . . ماذا أفاد الذين بكوا من قبل ؟

ويصيح بعض الرجال :

— أوقفى هذا البكاء . . . واحمدى الله أننا استطعنا ذبحها قبل أن تموت . . .

— قضاء أخف من قضاء يا خالتى حميدة . . .

— ربنا يعوضك خيراً منها . . .

وتصرخ فى لوعة . . . من أين ؟ هل يوجد الجاموس منطلقاً على جسور الترع ؟

ويتداولون . . .

— يجب أن يسرع أحد لإحضار جزارين من المركز ومن بلبيس .

ويقول من ذاق هذا الموقف من قبل ...

— سيحاولون انتهاز الفرصة . . . لن يقدم أحدهم ثمناً مجزياً . . . وقد يتفقون مع بعضهم ويتقدمون بسعر واحد . . . ثم يقتسمونها فيما بينهم .

— يعني موت وخراب ديار ؟ . . .

— أكثر . . .

ولكنهم يحضرون الجزارين . . . ويتناقشون ويشربون معهم أكواب الشاى . . . ويتناقشون . . . كل بكلمة . . . والحديث لا ينتهى . . . وعشرة جنيهات لا تصلح أبداً ثمناً للجاموسة . . . إن بها ما لا يقل عن قنطارين ونصف من اللحم . . . غير أشياء أخرى تباع . . . هذا حرام . . . حرام عليكم يا ناس . . . هذا مال امرأة مسكينة وفتاة يتيمة . . .

ولكن من يسمع ؟ كل يريد انتهاز الفرصة ، وما الحياة سوى مجموعة من الفرص ينتهزها الأذكياء .

ولكنهم يدعون الطيبة والرحمة . . . ثم يزيدون ثمنهم خمسين قرشاً . . .

ويغضب الرجال ويصيحون ويتحدثون . . .

وأخيراً ، يحتنبون وحدهم — رجال القرية — ويتهامسون .

ثم ينادون على بعض الغائبين . . . من منازلهم أو من الحقول والجميع يومئون برؤوسهم موافقين . . . وتسرع بعض الأيدى إلى الجيوب الداخلية لتخرج محفظة كبيرة يقلبها صاحبها ليفرغ كل ما فيها . . . وآخرون يسرعون إلى منازلهم . . . وغيرهم . . . يبحثون عمن يقرضهم من رجال أو نساء القرية . . .

ويعودون إلى مجلسهم من جديد . . .

— لن نبيع الجاموسة . . .

وينظر الجزارون إلى بعضهم البعض . . .

— وماذا ستفعلون بها . . ؟ تلقون بها للكلاب . . . ؟

— لا داعى لهذا الكلام سنشتريها نحن . . .

وتتوقف دموع خالتى حميدة ثم ترفع رأسها وتحدق فى الرجال واحداً بعد الآخر . . . ولكن لا أحد منهم يقابلها بنظراته ، كلهم ينظرون إلى الأرض أو يحولون وجوههم بعيداً عنها ، كأنما يتشاغلون عما هم فيه . . . وتدرك ما اتفقوا عليه . . .

فقد حدث مثله فى مرات كثيرة سابقة . . .

ويعيد الجزارون سؤالهم ، يوجهونه إليها :

— ماذا قررت ؟

و تنفض خالتى حميدة يدها :

ــ الجاموسة ملكهم يتصرفوا فيها كما يشاءون . . . ليس لى كلمة فى حضورهم . . .

ثم تنخرط مرة أخرى فى البكاء . . .

إنها من أهل القرية وتعرف ما اتفقوا عليه دون أن يخبروها . . . سيشترون الجاموسة وسيدفعون لها أكثر مما عرض الجزارون . . . من يدرى ربما عشرون أو خمسة وعشرون جنيهاً . . . كل منهم سيدفع جزءاً من الثمن ويقتسم جزءاً من اللحم لأطفاله .

هذه دائماً نهاية الأزمة . . . والناس لبعضهم . . . ستتوزع المصيبة ويخف أثرها . . . سيأكل أطفالهم ثريداً ولحماً فى عشائهم ثم ينامون سعداء وقد امتلأت منهم البطون . . . سيرقدون حتى بدون أن يغسلوا أيديهم . . . كأنما لا يريدون أن يضيع أثر اللحم .

والمبلغ الذى يدفعونه كل مرة يزيد كثيراً عما كان يمكن أن يقدمه الجزارون ، أولاد السوق . . . وهكذا تخف المصيبة بتعاونهم .

وعندما يحملون إليها أوراق النقد تبكى خالتى حميدة بحرقة وعاطفة ، مثلما بكت عندما مات أبوها وزوجها . . . وينهرها أحدهم فى شدة مصطنعة :

— لم البكاء .. سنذهب سوياً يوم السوق لنشترى لك عجلة وبعد عدة شهور تصبح جاموسة كبيرة أحسن مما كان عندك .

ويردد جاره .

— الله يعطى ، ويأخذ ... وهو عليه العوض .

ولا تتوقف دموع المرأة وتعود لذكر أبيها وزوجها ...

— ماذا كان سيفعل أبوك أو زوجك ...؟ هل كان فى استطاعتهما دفع القضاء ؟

— أبداً ...

هكذا ترد خالتى حميدة ، وقد عاودها بعض اطمئنانها القديم وأخذت رويداً ، رويداً ، تشعر بالدفء الذى جلبه الرجال إلى دارها بصدق عواطفهم ومشاركتهم ... كأنها لم تفقد أحداً من أهلها ... وبعد أسبوع سيكون عندها جاموسة صغيرة .

وستعود إلى سحبها عصر كل يوم ، وقد رق النسيم وخفت حدة الشمس لتأكل طعامها الأخضر ، من أعواد الحشائش الطرية وعند الغروب ستندمج فى موكب الفلاحين وهم يسحبون مواشيهم ويتجهون إلى مبانى القرية ...

ويشرق الأمل ثانية فى حياة خالتى حميدة .

خالتى أم محمد

سبعة وعشرون عاما طويلة مضت بما فيها من أيام وأسابيع ، شتاء وصيف وخريف ، وخالتى أم محمد تقوم بتربية المحروس على شبابه ، ابنها محمد . ولو أن خالتى أم محمد تربى ابنها كما يفعل أهل القرية جميعاً مع أبنائهم لما أرهقت نفسها كل هذا الإرهاق ولما حملت نفسها كل هذا العبء . فهى — إن استطاعت — تريد أن تقوم عنه بكل عمل وأن تجنبه كل تعب وأن تدفع عنه السوء والضر بكل ما أوتيت من جهد . ولو إنها استطاعت أن تقطع رغيف الخبز وتلقمه إياه لقمة بعد أخرى لما توانت أو تكاسلت .

إنه الابن الوحيد الذى تبقى لها من اثنى عشر بطناً ، صبيان و بنات ، كلهم ماتوا وطرتهم أرض الجبانة الكبيرة التى ابتلعت كل من مات من أهل القرية . حتى أن خالتى أم محمد كثيراً ما يختلط عليها الأمر فى الأعياد والمواسم التى يجب أن يقرأ فيها القرآن على روح الأموات ، كثيراً ما اختلط عليها الأمر وهى تعطى سيدنا قرش تعريفة أو فطيرة ليقرأ على روح هذا أوعلى روح هذه من الأبناء والفتيات الذين ماتوا . . . فى سن عشرة أو خمسة أو حتى فى سن الرضاعة ، تفيدة ومنيرة وخضرة وعليوه وابراهيم وخليل وغيرهم . . .

أما محمد ، ابن خالتى أم محمد ، الوحيد الذى عاش ، فلم يعش هكذا بسهولة . وكان من الممكن أن يحدث له ما حدث لإخوته من قبل و تطويه الجبانة الكبيرة التى لاتمتلىء والتى تبحث دوماعن المزيد . وكأنما أرض جبانة القرية هذه وحش كبير لا يشبع ولا يرد ما يلقى فى فمه الضخم . وكأنما ينتابه جوع لايشبعه آلاف الضحايا .

ولكنه عاش ، محمد ، لأن أمه حملته فوق ذراعيها وهو بعد رضيع وزارت به المشايخ وأولياء الله الصالحين ، السيد البدوى والحسين وستنازينب ومشايخ آخرين كثيرين ، أصغر من هؤلاء الأقطاب ، ولكنها ذهبت إليهم جميعاً ، وكله بركة ، لعل مجهودهم

جميعاً يتجمع ويتكتل ويقدر على مواجهة هذا الوحش الضخم الذى التهم أبناءها السابقين .

وعندما مات عمى عبد اللطيف ، زوجها ، بعد عمر طويل ، لم تحزن كثيراً ، وكأنها حمدت ربها لأنه استبدل زوجها بابنها الوحيد . لقد بكت خالتى أم محمد زوجها ولطمت خدودها وشقت حلبابها حزناً على زوجها ، على عشرة العمر الطويل بما فيه من أيام مرة . . . وحلوة . ولكن لو أن الموت، سار فى طريقه الطبيعى واختار محمداً . . . فلا يمكن تصور ما كان يحدث لها ، خالتى أم محمد . من يدرى ؟ ربما كانت قد دفنت نفسها بالحياة فى الجبانة معه ، وربما كانت قد خنقت نفسها بيديها أو ألقت بنفسها فى المصرف الكبير . لم تكن لتطيق الحياة يوما واحداً بدونه — إنه ذخيرة العمر كله ، لم يبق غيره . . . يارب .

هكذا تقول وهى تنظر له بإعجاب وتتبعه بنظرها كأنما تحرسه من كل سوء . حكايتها غريبة والله مع ابنها ، خالتى أم محمد هذه . طالما ذاقت المر وأرهقها السهد وعذبها القلق والخوف عليه .

ولو أنه — مقصوف الرقبة — حفظ جميلها وراعى قلقها عليه وانشغالها من أجله وعاش كما يعيش الناس غيره ، فى حاله ، من الأرض التى يزرعها إلى المنزل لعاشت خالتى أم محمد قريرة

العين مرتاحة الخاطر ، أسعد من أمهات العالم أجمع .

ولكنه — يحرس له شبابه — يقحم نفسه فى مشاكل القرية وكأنه المسئول الوحيد عنها . ثم يتعدى نشاطه إلى القرى المجاورة وكأنه الثور الذى يحمل الأرض فوق قرنيه . إذا سمع عن حريق فى قرية مجاورة سبق أهل القرية جميعاً فى الجرى إليها . . . أو ذهب إليها طيران ، كما تروى خالتى أم محمد التى تبقى فى منزلها فريسة القلق والعذاب أو تخرج إلى ظاهر القرية لتقف مع غيرها من النسوة على شاطىء الترعة تشاهد الحريق من بعيد وتصرخ بلا وعى كلما سمعت صراخ النسوة فى الحريق وضجيج الرجال وفحيح النيران . . .

إنها تعرف أنه سيلقى نفسه بين النيران ليطفئها . . . ماذا يعتقد ؟ هل يظن أنه من جنود المطافىء . . . ولكن هؤلاء مدربون مستعدون للأمر ويرتدون ما يمنع عنهم بعض الأذى . . . أما هو . . . فهى تعرف جرأته . . . سيحاول الجميع إطفاء النيران ولكنهم فى نفس الوقت يحافظون على أنفسهم ويبعدون أنفسهم جهد الطاقة عن مواطن الخطر ، إنهم يفكرون ويتدبرون قبل أن يقدموا . . . أما هو . . . سيدخل المنازل المشتعلة لإنقاذ من فيها أو ما فيها من مواشى وحبوب . . . أكل عيش ناس . . . كما يقول هو عادة .

لن يخشى على نفسه ولن يحسب لحياته حسابا . هكذا تعرف عنه خالتى أم محمد ، فهى تعيش فى كل جزيئات شعوره وعواطفه ، وتمتزج بكل مايختلج فى صدره حتى ليمكنها أن تعرف فى كل وقت ماذا يدور فى رأسه . . . وهى لهذا تخشى عليه ، وينتابها كثير من القلق حتى يعود لها سليما معافى ، وتعود معه تلك الأقاصيص الصغيرة التى تملؤها بالزهو وتزيد فى قلقها عندما يجد جديد . . .

ـــ محمد هو الذى فعل هذا ، وهو الذى فعل ذاك . . .

ـــ محمد من ؟

هكذا يسأل بعض من لم ينتبه للحديث . . .

فيجد الكثيرين يقولون فى نفس واحد فيه عتاب ولوم . . .

ـــ محمد ابن خالتى أم محمد ، من غيره ؟

وعندما جاءت الكراكة التى تطهر الترع والمصارف وتحمل من أعماقها الطين والحشائش المتراكمة لتلقيها على الجسور . . . عندما حضرت الكراكة كان لحضورها دوى كبير فى جميع القرى التى تقع على المصرف . ستلقى الكراكة ما تخرجه فوق الأرض المزروعة ، فوق شجيرات القطن . ضاع المحصول ياأولاد . . . خربت بيوتنا . خسارة التعب طول السنة . . . المحصول الذى

ننتظره لدفع الإيجار . . . المحصول الذى يسدد إيجار الذرة والبرسيم سيضيع تحت الطين . . . سيضيع بين فكى الكراكة الضخمة . . . ستدور الكراكة وتهدر ويصم صوتها الآذان ويقتل الهدوء والسكينة التى تخيم على القرى ، ثم ينزل القادوس الضخم إلى أعماق المصرف ويخرج مليئاً بالطين والحشائش ويرتفع رويداً رويداً والمياه تنساب منه وهو يرتفع ، وعندما يصل إلى فوق ويجذب الرؤوس والأعناق معه لتنظر إلى فوق سيدور ويتحول من فوق المصرف إلى الأرض . . . آه ، ياللقلوب الطيبة التى يمزقها هذا القادوس وهذه الكراكة . . . سيدور حتى يصبح فوق شجيرات القطن ثم يهبط رويداً رويداً . . . ليفتح فاه فجأة ويلقى بما فى جوفه . . . فوق مئات ومئات من شجيرات القطن العزيزة . . . خراب بيوت . . . دوى شديد أزعج القرية وملأ أهلها بالخوف والهلع . . . ولكن ماذا يفعلون . . ؟ هذه أوامر الحكومة . . . ومن يتعرض للكراكة يحدث له كذا وكذا . . . بل ومن الذى جرؤ على هذا التعرض منذ كانت هناك كراكة بل وقبلها عندما كان يحضر عمال التراحيل . . .

وخرج محمد ابن خالتى أم محمد وفأسه فى يده . . . ووقف على رأس حقله . . .

— لن تمر الكراكة . . . سأفتح رأس من يلقى حفنة من

التراب فوق القطن . . . أكل عيشنا يا ناس . . . انتظروا حتى تتفتح لوزات القطن ثم افعلوا ما تشاءون . . . بالعقل ياهوه . . .

ولكن من الذى يسمع حديث محمد . . . ؟ والكراكة ضخمة . . . ضخمة . . . وفأس محمد وإن كانت أجود فأس فى القرية إلا أنها لن تستطيع الوقوف أمام الكراكة . . . أبداً . . .

ويذهب محمد للمركز . . . أخذوه . . . اثنين من الخفراء بناء على إشارة من المركز للعمدة الذى ذهب بنفسه ليقنع محمداً ولكن بلا جدوى . . .

أصبحت له حكاية ضخمة وأحاديث تروى فى القرى والبلدة ، أحاديث كبيرة فيها المأمور والمعاون والعمدة ومهندس الكراكة . . .

وتمرض خالتى أم محمد ، إنها لا تستطيع الحياة بدونه يوماً واحداً ، بل هى لا تعيش إلا من أجله . . . محمد . . . حبة عينها . . . ثم هى تغالب مرضها لتذهب للمركز ، لأول مرة ، وتقف أمام عسكرى ، وجاويش ، ولا ترهب كل هذا الحشد من الجنود الذين يملأون المركز . . . تسألهم على استحياء فى أول الأمر ، ثم تصرخ فيهم وقد ذهب عنها الروع والخوف . . .

ابنى . . . حبيبى . . . أريد ابنى فقط . . . خذوا القطن والزرع كله . . . إن الكراكة تعمل عملها الآن فلماذا تحجزوه عندكم . . . أليس فى قلوبكم رحمة . . . ؟

وتعرف خالتى أم محمد طريق الشكاوى والمأمور ووكيل النيابة ، وتعرف كيف تتحايل حتى ترسل لابنها فى سجنه أرغفة من الخبز وبعض أقراص من الطعمية . . .

وعندما يخرج إلى باب المركز ، هذا الذى عذبها طويلا ، وأرهق أيامها ولياليها تأخذه خالتى أم محمد بالحضن وتقبله فى وجهه وفى عينيه ، وتقبل كتفيه وذراعيه ، كم تحبينه يا خالتى أم محمد ، بل هذه عبادة وليست حباً ، فما يحب أحد ابنه كما تحب هى محمداً ، وما يرعى أحد ابنه كما تفعلين مع محمد . ولكنه سامحه الله ، يعذبك ليلا ونهاراً ويرهقك بالقلق عليه . أملها الوحيد أن يصبح كبقية عباد الله . أن يلتفت إلى عمله ويعيش فى سلام كما يعيش الناس . يبحث عن أكل عيشه ويتزوج التى تعجبه وينجب منها البنين والبنات . كم تحب خالتى أم محمد أن ترى أبناءه ، أحفادها ، وتحملهم وتطعمهم وتقوم عن أمهم بكل ما تقوم به الأم للأبناء الصغار ، بل كم تحب أن تجلس أمام باب منزلها فى شمس الضحى شتاء أو فى ظل الحائط صيفاً وعلى قدميها ، وفى

حجرها ، أولاد ابنها محمد ، وحولها ، حولها فى كل مكان ، يملأون البيت أبناء هذا الإبن . ليته يفعل هـذا ويستريح من كل هـذا الشقاء الذى يجلبه لهـا ولنفسه — ولـكن ماذا يفعل يا خالتى أم محمد ؟ أيحب أحد لنفسه أن يشقى ؟

هكذا يسألها البعض . . .

— كان يابنى يعيش فى حاله ، كان يدور مع الأيام كما يفعل الناس جميعاً . يجب أن يخضع للظروف أحيـانا . الناس كلهم يفعلون هذا . . . هل سيصلح الدنيا وحده . . . لا يعجبه ما يحدث للناس . . فيعرض نفسه للمشاكل . ولا يعجبه ما يحدث له فيعيش دائماً وسط المشاكل .

وتشير خالتى أم محمد إلى محدثها بأصبعها :

— أنت نفسك . . . هل تفعل مثله ؟

— كل واحد عقله فى راسه يعرف خلاصه يا خالتى ام محمد . الناس بتجرى على أكل عيشها .

— ولمـاذا يكون أكل عيشه هو محفوفا بكل هذه المشاكل ؟

وتضرب خالتى أم محمد يداً بيد وتدعو للمشايخ وأوليـاء الله

الصالحين الذين استجابوا لدعوتها من قبل . الإبن الوحيد الذى بقى لها ولم تلتهمه الجبانة ، يحدث له كل هذا ، لم يا ربى ؟ لماذا لا تترك هذا الإبن لخالتى أم محمد ، تتركه يعيش كما يعيش الناس حتى تنام ذات يوم وقد اطمأن قلبها عليه ، وهدأت أفكارها التى أرهقها دوام التحليق حوله ؟

ولكنها رغم كل هذا تحبه ، حتى مع القلق والعذاب الذى تعيش فيه من أجله . بل إن هذا العذاب ، ما كان ليرهق خالتى أم محمد كل هذا الإرهاق لو أنها كانت تحبه أقل من حبها له . بل إن عدم الخضوع هذا الذى يجعله يعيش فى دوامة من المشاكل يدفعها إلى التعلق به أكثر من تعلق أمهات القرية بأبنائهن . إنه ابن لم ترزقه أم منهن ، هكذا تعتقد كل أم فى ابنها . . . والقرد فى عين أمه . . غزال . . . لكن خالتى ام محمد تدير بصرها وفكرها حولها فى القرى المجاورة فلا تجد لابنها نظيراً فيطير قلبها من القلق عليه واللهفة على ما يجرى له ويزداد امتلاء قلبها بحبه والخوف عليه ، إن كان لا يزال فى قلبها فراغ لأى زيادة أخرى .

وتتعثر خالتى أم محمد فى كتل الطوب التى تملأ الطريق الزراعى إلى منزل خطيب المسجد وشيخ الخفراء .

ـ والنبي تنصحه يا سـيدنا الشيخ . وياحاج على . . كلمه ربنا يسترك .

ولا فائدة من حديث سيدنا الشيخ والحاج على . وما فى رأس محمد ينفذه ، فهو لا يفكر فيما يحدث له من عواقب . إنه فقط لا يريد لأمه أن ترهق نفسها كل هذا الإرهاق . . . لو أنها تستريح وتتركه يفعل ما يشاء . . . الناس جميعاً لهم أبناء ، والكثيرون مات لهم كثير من الذرية . . .

ـ أنت فقط التى لك إبن تخافين عليه . . . ؟

هكذا يقول محمد ، فهو لم يعرف قلب الأم وما فيه . . . وكيف له أن يدرك كل ما يضطرم فى قلب أمه من عواطف حادة عميقة ؟

وأخيراً تأتى المشكلة الكبرى ، ومحمد مشاكله لا تنتهى ، يقف أمام صاحب الأرض ، مرة واحدة ! ! ! الفلاحون جميعهم ينفذون أوامره ، حتى العمدة والمشايخ كلهم يحرصون على رضاه ، إلا أنت يا محمد . . . أنت فقط . . ؟ لم هذه المكابرة ؟ كل برغوث على قدر دمه يا بنى ؟

ولكنه لا يستجيب لحديث أمه . . . إنها تقول هذا دائماً :

عندما تشاجر مع مهندس الزراعة من أجل محضر رى البرسيم قالت هذا . . . وعند ما وقف للشيخ عبد السميع وصرخ فيه وهدده قالت أيضاً مثل ما تقول هذه المرة .

— تريدين أن يطأوا عنقى بأقدامهم ؟

هكذا يتصور محمداً ما تريده أمه ، وهكذا يواجهها فى ثورة ، وهى تريده أن يكون فوقهم جميعاً وأكبر من كل العمد والمشايخ بل ومن العالم أجمع . ولكنها تخشى عليه مشاكله هذه التى تجده فى وسطها والتى لا تدرى كيف تنشأ . فجأة يصبح محور مشكلة ضخمة . لماذا هو ؟ ابنها فقط ؟ !

ومرت المشاكل الماضية بسلام ، وخرج منها سليما ، وبقى لها يدفىء قلبها ويملأ عليها المنزل . . . ولكنه هذه المرة أيضاً فى خضم مشكلة أكبر وأمام قوة أعظم من كل القوى التى خاض معها معارك .

— هذا حق لماذا أتركه ؟ الحكومة قالت الإيجار كذا . . . لماذا أدفع أكثر ؟

— الناس جميعهم يفعلون هذا ، سيطردنا من الأرض ،

من القرية التى عاش فيها أبوك والتى عشت فيها طول عمرك . . . سنتركها ! ! ! إلى أين . . . ؟

— بلاد الله واسعة . هذا إذا طردنا ، ولكنه لن يستطيع .

— يابنى لقد فعل هـــذا مع كثيرين . سيطردك بالمحكمة والبوليس . . . ولا عقد إيجار معك ولا ما يثبت أننا دفعنا إيجار السنة الماضية . . . لماذا لا تهدأ وتعيش كما يعيش الناس . . . أليس فى الدنيا رجال غيرك ؟

— لن أدفع . . . لماذا أظلم نفسى من أجله ؟ ولماذا يأخذ أكثر من حقه ؟

وكأنه رقيب على المبادىء والقانون والأخلاق ابن خالتى أم محمد هذا .

— أتقيم الدين فى مالطة ؟

هكذا تصرخ خالتى أم محمد . وهى لا تدرى لكل هذا الذى يثيره ابنها سيلاً . لماذا يعيش فى كل هذه الدوامة ؟ ما الذى يجعله ثائر الأعصاب هكذا أبداً ؟ لم يعيش فى كل هذا القلق ؟ ولماذا يحير قلبها وعقلها معه ؟

لماذا لا يهدأ حتى تهدأ أيامها ولياليها ؟

هذا ما يحير خالتى أم محمد . أيعيش وفى داخله شعلة من النيران لا تجعله يهدأ ولا يستقر ؟ الناس جميعهم تمر بهم المشاكل وتمتلىء حياتهم بصنوف القلق . . . ولكنهم ليسوا مثل ابنها محمد ، أبداً . . .

— لو إنه هدأ وعاش كما يعيش الناس حياة عادية .

لو إنه ترك الحياة تسيِّره وتأخذه إلى هذه الناحية أو تلك ، كما تفعل بالناس . . . ؟

وتمنيات كثيرة تتمناها خالتى أم محمد ولا يتحقق منها شىء ، وقلبها يمتلىء دوماً بالقلق والخوف واللهفة عليه . والأبناء الكثيرون الذين أودعتهم الجبانة الكبيرة تتحول مرارة فقدهم والحب الذى كان يمكن أن يشملهم جميعا إليه ، إلى محمد . وتحيطه بمزيد من العناية والرعاية والحب حتى لتكاد تقطع له لقيمات الخبز وتضعها فى فمه ، وتحضر له جلبابه ، وتناوله فأسه ، وتشيعه مثلما تستقبله بالدعوات الصالحات . وكل أملها ، أملها من قديم ، أن يهدأ ويستقر ويعيش مثلما يعيش الناس ، حتى يهدأ قلبها عليه ويستقر فؤادها الذى يطير شعاعاً من أجله . تريد أن تأمن عليه

غدر الدهر والحوادث . . . ولو استطاعت أن تخبئه فى أحشائها ثانية ، أو فى قلبها لفعلت . . . فهناك يمكنها أن تكون أكثر اطمئناناً عليه .

ولكنه لا يريد أن يهدأ ولا يدعها — خالتى أم محمد — تهدأ . . . إنه قرة عينها ، كل حياتها وهو مع ذلك سبب عذابها وقلقها . لو إنه أراح نفسه وأراحها بعد هذا العمر الطويل ! !

— ربنا يهديك يا بنى . . .

هكذا تردد خالتى أم محمد لابنها ولنفسها . . . وهى ترفع يديها وعينيها فى ابتهال واستجداء إلى السماء .

فاطمة العبيطة

كان الأطفال فى طرقات القرية الصغيرة يرددون كلمتهم الخالدة : الخواجة فلس باع البرنيطة ، واجوز فاطمة العبيطة . . . ولا يدرى أحد إن كان هذا القول قد ابتكر بمناسبة فاطمة قريتنا أم أنه كانت هناك فى الماضى فاطمة أخرى ، عبيطة أيضا .

أما هذا الخواجة المشهور فلا يدرى عنه أحد فى قريتنا أو فى القرى المجاورة شيئاً . وهذا يؤكد أن الموضوع كله أقدم وأعرق من موضوع فاطمة قريتنا . ومن هى حتى يصبح لها

تاريخ ؟ ! وحتى تروى عنها الكلمات جيلا بعد جيل ؟ هذه العبيطة . . ! !

وعندما تضع فاطمة قدمها على أول مدخل القرية تفاجأ بالأطفال من حولها يصيحون ويهللون فى فرح صبيانى مجنون لا يعرف الحدود ، « الخواجه فلس باع البرنيطة واجوز فاطمة العبيطة » . وهم يصفقون بأكفهم الصغيرة ويرقصون ويقفزون فى الهواء ويجرون هنا وهناك حولها ، حول فاطمة ، العبيطة .

كيف عرفوا بحضورها وكيف تجمعوا هكذا سريعاً ؟ لا أحد يدرى .

ومما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يقال إنهم قد أنشأوا فيما بينهم نظاماً للاستطلاع ليعطيهم الإشارة بحضور فاطمة . ولكن كيف يعرف هؤلاء العفاريت الصغار بحضورها ؟

وتمضى فاطمة فى سيرها خلال درب القرية المتعرج كطريق جحا . . . وهى تهش الأطفال وتزوم فى وجوههم . . . ثم تلجأ إلى الجدران تسير بجوارها وترتكن إليها . . . وهى غاية فى الأسى والحزن والضعف والتخاذل . . .

فإذا من عليها الله بمرور واحد من رجال القرية امتلأ قلبه بالشفقة عليها ، وهو يرى الأطفال يعوون حولها ويجذبون أطراف جلبابها كذئاب جائعة أو ككلاب القرية مع الغرباء ، وطردهم عنها ، نظرت إليه فاطمة ، فى امتنان وكأنه قد أنقذ حياتها ، وتمتمت من بين شفتيها كلمات متقطعة . . . مختلطة . . . تدعو له فيها بأشياء غير مفهومة . . .

ويمضى الرجل منكساً رأسه إلى الأرض وصدره يضطرب بشعور مختلط من الرحمة والحب والشفقة ، وقد اعتقد فى أعماقه بأن ما فعله حسنة سيجازيه الله عنها . . . ما دام لا يقدر على الإحسان لفاطمة بحفنة من القمح أو كوز من الأذرة أو حتى بكسرة من الخبز . . .

ويعود الأطفال لهجومهم الخاطف على فاطمة وهم يرقصون ويصيحون كالهنود الحمر أو كقبائل نيام نيام التى يروون عنها الأساطير والخرافات . وتعود هى لمحاولاتها اليائسة فى الهروب أو الالتجاء إلى جدار أحد المنازل وهى تجذب ثوبها منهم وتمسك بيدها « القفة » التى تفارق رأسها ، والتى تجمع فيها ما يمن عليها به المحسنون . . .

وتمر فاطمة على بعض دور القرية ، لا كلها ، فهى تعرف

بخبرتها السابقة أن هناك منازل لافائدة من المرور عليها أو الوقوف عندها . ستطردها المرأة ، ربة المنزل ، إذا كان بابها مفتوحاً ، وسيخبرها ، مقصوف الرقبة — ابنها — بأن هذه هى فاطمة العبيطة إذا كان بابها مقفلا ، ولن يفتح الباب من بعد ، حتى وإن وقفت فاطمة طول النهار . . .

لكن أمور فاطمة لا تدعو إلى مزيد من الحزن ، فكثير من دور القرية تعطف عليها وتقدم لها الخبز والطعام . . . ودور أخرى فى القرى المجاورة تقدم لفاطمة أيضاً ما يقيم عليها حياتها وما يمنعها من الموت جوعاً . . . والزكاة فرض واجب . . . ومن أحق بها من امرأة وحيدة لا أهل لها ولا زوج ، وهى فوق هذا كله بلهاء لا تتقن عملا أو صنعة . . . وأحب الناس إلى الله هم البلهاء ، كما يقول سيدنا الشيخ . . . فهم لا يحملون ضغينة ولا يفعلون سوءاً . . . وإنما تسيئهم الحياة فى كل يوم وساعة . . . وكأنما لهذا الغرض وحده يعيشون . . .

منزل واحد لم تكن فاطمة تطرقه أو تقرب بابه ، ذلك هو منزل العمدة . وهو أمر غريب ! ، سره مجهول ! ؟ لأن منزل العمدة لا يرد طارقاً ، والمتسولون رجالا ونساء وعازفو الدفوف والربابة والمواويل وغيرهم من فنانى الريف يحضرون للقرية من أجل

العطاء الذى يقدم لهم جميعاً بلا استثناء سواء حضروا كل يوم أو على فترات متباعدة . . . لماذا تشذ هى فقط عنهم ، أيكون هذا نتيجة عبطها المشهور . . . ؟

وتدور فاطمة مع الدرب وصيحات الأطفال وغنائهم يلاحقها كظلها ، أو كهذا الذباب الذى يلحق وجوه الأطفال لا يتركها . وما أن تقترب من منزل العمدة حتى تدير وجهها وهى تدمدم وتسخط . . . وتسرع فى خطوها ، ولو أن أحداً تفحص حالتها بدقة عند هذا المرور لأدرك أن هذه اللحظة هى الوحيدة التى تنسى فيها زفة الأطفال وصياحهم حولها . . . كان يبدو جلياً أن نفورها من منزل العمدة يملأ عليها تلك اللحظة من حياتها ولا يدعها تشعر بشىء آخر .

فإذا شاءت الحياة أن يكون اليوم سيئاً غاية فى السوء لفاطمة فإنها ستقابل حسن ، ابن العمدة الشاب ، الذى لم ينفع فى المدارس أو لم تنفع معه المدارس ، وقد ركب فرسه وخرج لبعض شأنه فى الحقل أو فى القرى المجاورة . ولن يخطىء أحد نظرات الحقد الشديدة والغضب الذى يملأ فاطمة وهى تتراجع ، مع ذلك — فى خوف وتلتجىء إلى الجدار خلفها . . . وأصابع يديها تتقلص وتتشابك كأنما تريد أن تخنق أحداً . . . ثم ترفع يدها لتغطى

عينيها كأنما تدفع عن نفسها خطراً داهماً .

ويمر حسن بفرسه ، وقد لا يلحظ العبيطة فى وقفتها ... فتنهض وتتبعه بخطوات قصيرة سريعة وقد تركت خبزها وما جمعته فى يومها من المنازل ... كانت كالوحش يطارد فريسته وهى تتبع ابن العمدة هذا ... ماذا بينها وبينه ؟ ؟ ولماذا هذا الحقد الشديد ؟ ألأنه ميسور الحال يعيش سعيداً هادئاً صحيح الجسد والروح ؟ ولكن الكثيرين يتمتعون بما يتمتع به ولا تحمل لهم فاطمة مع هذا شيئاً مما تفصح عنه نظراتها وحركاتها معه ... ولكنها عبيطة ، أليست فاطمة العبيطة ، التى اشتهر عنها العبط حتى أصبح غنوة على شفاه الأطفال ؟

* * *

ونظرة الرجال فى القرية إلى فاطمة نظرة غريبة لا يمكن تحديدها بدقة إنهم يضحكون منها بينهم أحياناً ويتندرون على ما تفعل ...

بعضهم يقول ...

— رأيتها تجلس على جسر الترعة ساعات طويلة وفى يدها عود من الحطب ... ويضحك آخر ...

— ولماذا تنتبه لأحوالها كل هذا الإنتباه . . ؟

ويضحك بقية الرجال ، ثم يغرقون فى ضحكهم فى سرور حقيقى عند ما يطلق أحدهم طلقة صائبة . . .

— لأنه لم يتزوج بعد . . . لماذا لا نزوجه بفاطمة . . . ؟ إنها والله عروس طيبة . . .

وبعد أن تهبط الموجة الجديدة من الضحك يهدأ الرجال مرة واحدة ويسودهم سكون عميق . . . والذى يتمالك نفسه منهم أولا لا يسعه سوى القول :

— ليس عندنا فى القرية امرأة مثلها . . . ألا ترون بياض جسدها . . . إن لحمها أبيض كالقشدة ، ينبعث منه دفء لذيذ كرغيف الخبز الساخن . . . خسارة والله . . .

ويعض أحد الشباب على نواجذه وهو يتصور ، ما يتصوره الجميع ، فاطمة بجسدها المعتدل المتناسق وعودها الجميل الذى وهبته الطبيعة كثيراً من مفاتنها . . . عود لم يمتلىء بكثير من اللحم ومع ذلك تشعر بطراوته وغناه عند ما تراه خلال التمزق على جانب بطنها أو من ذلك القطع فوق ثديها أو من الشق الطويل فوق ساقها . . . وهى لا ترتدى شيئاً تحت جلبابها . . . وكثير منهم

لمحوا فخذها وهى تجلس بلا انتباه أو رأوا صدرها وثدييها وجزءاً من بطنها وهى تنحنى لبعض شأنها . . . وشعرها الذهبي يتهدل على ظهرها وفوق كتفيها وتتشابك أغصانه . . . وعينيها . . . أرق وأجمل ما أبدع الله من عيون . . . حتى فمها ، هذا العبيط ، له شفتان رقيقتان حمراوتان كأوراق الورد . . . آه لو لم تكن عبيطة . . . ! !

ويسبها كل منهم — فى ضميره — بغيظ . . .

— هذه العبيطة . . . لو لم تكن عبيطة لما نفذت من يدى . . .

وحتى مع هذا العبط يتصورها شبابهم وهى بغير جلبابها هذا ، عارية . . .

وتتأوه أعماق الشباب وينطلق منها فرس أشهب يجرى بكل قوته ويعربد فى أرض فضاء واسعة . . . وعندئذ ، وعندئذ فقط لا تصبح فاطمة عبيطة فى تصورهم ، وهى بكل هذا الجمال وهذه الأنوثة وهذه التصورات ، فى تلك اللحظة تصبح فاطمة ، فاطمة فقط . . . ثم تنقطع هذه التصورات فجأة بلمحة إنسانية تنطلق من أحد الرجال . . .

— مسكينة فاطمة . . . لا عقل ولا أهل . . .

ـ ربك لا ينسى أحداً من خلقه . . .

وسرعان ما تسود الجلسة روحانية غريبة ليس بينها وبين الأحاسيس السابقة صلة ، ثم تمضى هذه الروحانية إلى عالم الأشباح والعفاريت . . . إن فاطمة تعيش تحت كوبرى على تقاطع الطرق بين الحقول الشاسعة من كل جانب . هذا التقاطع الذى يخشى الرجال أن يسيروا فيه منفردين فى المساء . . .

ومن قائل فيهم بأن فاطمة العبيطة هذه ، التى يحطون من قدرها تآخى الجن والعفاريت ، ألا تعيش بينهم ؟ ومنهم من يقول بأنه رآها ذات يوم تستحم عارية بجوار الكوبرى وعند ما اقترب منها فوجىء باختفائها كلية وكأنها فص ملح وذاب . .

ويختلط حديث الرجال ببعضه عن فاطمة وجسدها الذى لا يوجد مثله بين أجساد نساء القرية ، وعن العفاريت والأشباح التى تسكن مياه المصارف الكبرى والتى تعيش معها فاطمة . . . ولكن لا أحد منهم يتساءل عن هذا العبط الذى التصق بها . لا أحد منهم يعرف إن كان شيئاً طبيعياً ألصقته بها الأقدار منذ ميلادها أم هو من الأمور المستحدثة التى أصابتها بها الحياة وظروفها . . .

لا أحد منهم يتحدث عن سر هذا العبط المشهور . . . منهم

من يتساءل بينه وبين نفسه . . . ومنهم من يلقى سؤاله فى هدوء كأنما يعتب على القدر والطبيعة . . . ثم ينسى الأمر كله . . . ويضيع فى الزحام . . .

* * *

عجوز فى القرية لا تنسى الأمر أبداً ، ولا يضيع منها فى الزحام . وعند ما تقبل فاطمة على القرية لا تنهرها ولا تقفل الباب فى وجهها وإنما تأخذها من يدها إلى داخل المنزل ـ وقد تأخذها بين أحضانها أحياناً ـ ثم تجلسان وتجلسان إلى أن يشاء الله ، تتحادثان فى ود وتعاطف . والذى يدخل على مجلسهما ينتابه العجب لهذه الجلسة التى تجلسها فاطمة العبيطة ، بل وقد يخيل إليه أحيانا أن فاطمة فى هذه الجلسة وبهذا الحديث لا يمكن أبداً أن تكون عبيطة . . .

كانت العجوز صديقة لأم فاطمة ، فقد كان للعبيطة أيضاً أم منذ سنوات كثيرة ، وكانت تعيش مع ابنتها فى منزل العمدة تقومان بخدمة من فيه لقاء طعامهما وكسائهما وقليل من النقود تعطيهما إياها زوجة العمدة ، عند ما تشتد حاجتهما إليها . وأهل القرية جميعاً يعرفون هذا ، فقد عرفوا فاطمة منذ ولدت ومنذ أن كانت صغيرة تلعب مع الأطفال ثم بعد وفاة أبيها حيث انتقلت مع أمها إلى المنزل الكبير .

وتمضى سنوات تموت فيها أم الفتاة وتبقى هى حيث هى فى حياة تفضل كثيراً حياة أهل القرية . حياة ليس فيها أعمال شاقة فى الحقل ولا روث الحيوانات ، مع طعام جيد وملابس نظيفة ، ومعاملة فيها كثير من الرقة والتهذيب .

وعرف أهل القرية فاطمة صبية شب عودها وامتلأ صدرها . وراودت الأحلام الجميلة بالزواج من فاطمة كثيراً من شباب القرية . وأخذوا يخطبون ودها ويتملقون زوجة العمدة أن توافق على الزواج ولكن فجأة . . . وبلا مقدمات . . . تختفى فاطمة . . . هكذا مرة واحدة كأنما اختطفتها العفاريت الزرق . . . وبعد شهور عادت فجأة إلى القرية بهيئة تختلف تماما عن فاطمة التى عرفوها . . . كانت قد أصبحت فاطمة العبيطة . . .

وتساءلوا فيما بينهم كثيراً وأحاطوا فاطمة بالأسئلة فلم يفز أحد منهم بخبر . . . العجوز فقط كانت تدرك ما خفى عنهم . . . هل عرفت بالغريزة فقط أم أنها استطاعت أن تنتزع من بين شفتى الفتاة ما أعانها على الفهم ؟ من يدرى فقد أطبقت هى أيضاً شفتيها على سر الفتاة . . . والله وحده يعرف ما فى القلوب .

وتحيط العجوز كتف فاطمة بذراعها ثم تقدم لها مما عندها من طعام ودموعها تفيض فى صمت . . . فقد كانت هى أيضاً فتاة

صغيرة ذات يوم . . . تراودها أحلام العذارى عن المنزل والزوج والسعادة . . . وهذه الفتاة أين ذهبت أحلامها . . . ؟ وتتصور العجوز وحشية ما حدث . . .

حسن وقد عاد خائباً من المدارس يجد الفتاة صبية فاتنة تشتهى تعيش معه كل يوم ، وتدخل عليه حجرته مستيقظاً ونائماً . . . ولا تستطيع عصيان أمره . . . غنيمة ميسرة ، ثمرة ناضجة فى متناول اليد . . .

وكانت الطامة حينما استيقظت الفتاة وأخذت تصرخ . . . حتى غابت عن الوعى .

وساد المنزل هرج ، ولكن زوجة العمدة سرعان ما سيطرت على الموقف وقررت أن الفتاة قد انتابتها موجة عصبية ، هكذا بلا سبب . . . ثم أضافت بأن أمها — أم الفتاة — أيضاً كان يطوف بها طائف من الجنون . . . مسكينة . . . . ورثت المرض عن أمها . . .

وفى الصباح ، خرجت الفتاة ولم تعد ، ويجد منزل العمدة من يقوم بالخدمة فيه . . . وبعد شهور عادت فاطمة . . . عادت وفوق رأسها « قفة » قديمة فيها كسرات من الخبز . . .

وبدأت طوافها الدائم على منازل القرى . . . . منزل واحد لا تطرق فاطمة بابه ، وشخص واحد تحمل له فاطمة من الحقد ما يكفى الناس أجمعين ، ذلك هو منزل العمدة وحسن ابن العمدة .

— عبيطة . . .

هكذا يردد الصبية وهم يصفقون ويقفزون حول فاطمة . . .

وكذا أيضاً يردد أهل القرية والقرى المجاورة وكأنهم أخذوا الحكمة من أفواه أطفالهم . . .

* * *

ويكبر أطفال القرية وتلهيهم الحياة وجدها عن فاطمة ، ولكن أطفالا آخرين يوجدون فى القرية ، وهم أيضاً يصيحون ويقفزون حول فاطمة وينثرون فى الجو صيحاتهم كهذا الذباب الكثير الذى يتواثب على وجوههم ويرددون : « الخواجة فلس باع البرنيطة واجوز فاطمة العبيطة » .

هى وحدها ...؟

ليس هناك من ينقم على الدنيا ، وعلى الناس والحكومة والزمن ، مثلما تنقم خالتى عايشة الداية . وألفاظ النقمة والغضب تنهال من فمها كالدموع من عيون الحزانى ، أو كالذباب على أفواه الأطفال . وما أن تأتى مناسبة — والمناسبات كثيرة — قد تختلقها هى بنفسها ، حتى تبدأ — خالتى عايشة — حديثها هذا الذى سمعه أبناء القرية منها كثيراً .

— هذا آخر الزمان ، لقد انعدم الخير وأصبح الناس غيرهم

بالأمس . . . زمان . . . يا سلام على أيام زمان . كانت هى الأيام حقيقة ، وكان الناس أفضل من ناس هذه الأيام كثيراً .

ويعجب من يسمع حديث خالتى عايشة من هـذا القول ، وغالباً ما يوافقها على رأيها ، وفى الحالين تمضى لتكمل حديثها لتفسر أسباب نقمتها . . . .

— لم تكن تمر على ليلة بدون عمل . . .

حالة ولادة فى الخلية . . أو سبوع فى بحطيط . . أو طهارة فى شمبارة . . . . كان من يحتاج إلى يحضر إلى منزلى . . . وعندما لا يجدنى ، كان يذهب إلى حيث أكون ، فى أى بلد أو قرية ، وينتظرنى ساعات أو يوم كامل ، حتى أنتهى مما أنا فيه ، لأركب دابته وأسرع إلى زوجته وقد امتلأ بطنها بآلام المخاض ، أو إلى ابنته لأجرى لها عملية الطهارة . . أما السبوع فقد كنت أعرف ميعاده فأنا التى استولدت المرأة .

كل النساء حولنا كنت أقوم بتوليدهن ، فى البلاد والقرى ، امرأة العمدة والشيخ والخفير والأجير . . . حتى عمك على الذى يعيش على أموال الزكاة ، أنا التى قمت بإخراج أبنائه الخمسة من بطن امرأته .

وتتلفت خالتى عايشة حولها يملؤها شعور يشبه الفخر ممزوج بالكبرياء والاستعلاء . .

ـ ساعدت جميع النساء . . . العجوز والصبية ، الغنية التى تلبس الحرير والفقيرة التى تلف جسدها بالدمور المصبوغ . . . . بل وكثيراً ما استولدت الأم ، ثم ابنتها . . .

عندما كنت أذهب للمرأة ، أى امرأة ، فى نهاية شهرها التاسع عندما تأتيها الآلام التى تعرفها النساء جيداً ، آلام فى البطن عندما يكون الجنين بنتاً ، أو فى البطن والظهر عندما يكون ولداً ، مع شعور ضخم بالثقل والرغبة فى التبول . . . عندما كنت أذهب للمرأة فى مثل تلك الحالة وقد تجمعت النساء حولها وبدأت هى فى الصراخ والأنين . . .

وتقاطع خالتى عايشة نفسها وهى تهمس كأنما تذيع سراً . . .

ـ وبعضهن يزدن فى صراخهن وأنينهن كلما رأين النساء حولهن وكلما سمعن تشجيعهن . . مكر النساء ودهائهن . . .

ثم تعود خالتى عايشة الداية لحديثها . . .

ـ عندما كنت أدخل حجرة المرأة فى مثل تلك الحالة كنت أصرخ فى النساء حولها آمرهن بالخروج . . .

وتنظر خالتى عايشة بجانب عينها فى لؤم ثم تضيف . . .

— هكذا يجب أن يسير العمل حتى يسوده النظام والهدوء . النهاية . . . .

هكذا تضيف وهى تلوح بيدها ثم تمضى . . .

— وكنت أجلس بجانب الحامل ، ثم أضع يدى على رأسها مترددة وأناجيها بأعذب الألفاظ . . . لماذا تصرخى يا حبيبتى . . . روحى أنا . . . لقد حضرت يا حبيبتى . . . حضرت خالتك عايشة فلا داعى للصراخ . . . لا تصرخى ثانيـة وإلا أُرهقت . . . فلا تستطيعين مجاوبة الطلق ومساعدته عندما يجىء . . . . اهدئى الآن يا حبيبتى . . .

* * *

عندما ينظر المستمع إلى يد خالتى عايشة الضخمة الخشنة يهوله مرآها ، ويعذر كل النساء اللاتى وقعن تحت يدها . . . ويبدو أنها كانت تفهم ما يدور فى رأس محدثها ، فتتحسس يدها باليد الأخرى وهى تقول . . .

يدى هذه ليست أكبر من رأس أى طفل تلده المرأة . . . .

ويدى هذه فيها كل الفائدة . . . كنت أدفعها داخل المرأة أتحسس الرحم وفتحته ، والجنين وموضعه . وعندما يكون عنق الرحم لايزال مغلقاً كنت أعرف أننى سأقضى الليل بطوله بجانب المرأة فوقت الولادة لم يحن بعد ، والمرأة وأهلها قد تعجلوا استدعائى . . ومعظم النساء كن يفعلن هـذا ويعتقدن أن حضورى سيخلصهن من لآمهن . . . ولـكن هذه أشياء إلهية . . . ماذا أفعل أنا . . . وكيف أخلصهن منها ؟ حتى الطبيب الذى يقولون الآن أنه يستطيع إجراء الولادة أحسن منى . . . حتى الطبيب لا يستطيع منع آلام المخاض . . . هـذه أشياء إلهية . . . ولـكنه زمن . . . ضاع منه الخير والإنسانية . . . لقـد استولدت مئات ومئات النساء . . . وعرفت عن الولادة أكثر مما يعرفه أى دكتور . . . ولـكن . . . من يقرأ ومن يسمع . . . قال دكتور . . . ! كلام فارغ . . . أيعرف الدكتور أكثر منى ؟

ذات مرة كنت أقوم بتوليد البنت شلبية زوجة خفير عزبة حسنى . . . قضيت عندها نهاراً بطوله من بزوغ الشمس حتى الغروب وليلة بأكملها . . . البنت غلبها النوم ، رغم الآلام التى كانت تعانيها بل وأغمى عليها عدة مرات . . . وأمها العجوز جلست بجانبى ورأسها تغلبها حتى تميل على صـــدرها . . . وعندما ترفعها مرة أخرى كانت تجدنى جالسة فى انتباه . . .

وتنظر خالتى عايشة بفخر وتقدير لنفسها . . .

— أرواح ناس يا ابنى . . . أما الدكتور ، أى دكتور . . . هل يجلس بجانب أى امرأة هكذا كما كنت أفعل . . . إنه يحضر فيكشف عليها بسرعة ثم يقول . . . حالة عسرة . . . يجب إجراء عملية . . . ثم يسأل أهل المرأة . . . هل تهمكم الأم أو الجنين . . . هكذا فعل مع البنت شلبية ثم نقلها إلى المستشفى وأجرى لها عملية وأنزل منها الطفل قطعاً صغيرة . . . أما أنا . . .

وتضرب خالتى عايشة صدرها بيدها . . .

— لم أفعل هذا مرة واحدة . طول عمرى وأنا أقوم بتوليد النسوة ، ما من مرة قلت أنه يجب قتل الجنين حتى تعيش الأم . . . وبعد هذا يحدث لى ما تراه . . . حكمة . . . دنيا ليس لها أمان . . . ناس لا يقدرون الخير . . .

ويقول المستمع لخالتى عايشة متسائلا :

— وأنت ألم يحدث معك أن ماتت امرأة فى حالة ولادة عسرة . . . ؟

وترد خالتى عايشة من فورها :

ـ الأعمار بيد الله يابنى . . . وهل أضمن أنا حياة الناس . . ؟ بعض النساء جاءهن الأجل وهن فى حالة الولادة ، ولكن الناس نساء ورجالا يموتون وهم فى تمام الصحة . . . فما ذنبى أنا فى هذا الأمر . . . ؟

ثم تتساءل خالتى عايشة :

ـ هل يضمن الطبيب حياة المريض . . . . ؟ الطبيب يضمن فقط عدة جنيهات يقبضها فى كل حالة ، من الفقير والغنى ، سواء مات الجنين أو ماتت الأم والجنين ، أو مات أهلهما حتى يجمعوا أجر العملية . . . زوج البنت شلبية ، الخفير ، يتقاضى ثلاثة جنيهات شهرياً ، يعول منها أمه وأربعة أطفال . . . ومع ذلك رفض الطبيب أن يجرى لامرأته العملية قبل أن يقبض ثمانية جنيهات . . . وكان يردد طول الوقت . . . يجب أن تجرى العملية فوراً وإلا ماتت الأم أيضاً . . .

وتنظر خالتى عايشة وكأنما شعرت بالفوز . . .

ـ من أين يأتى مثله بثمانية جنيهات ليعطيها للطبيب الذى أخرج ابنه ميتاً والذى أجرى بعد ذلك للمرأة عملية أخرى . . . هكذا قال . . . لأن الرحم تمزق . . . تصور أنه يقول هذا عما أفعله ؟ . . . مع إننى أقوم بالتوليد منذ أن كان هو طفلا صغيراً

يلعب . . . بل ومن بين من أخرجتهم إلى الدنيا أطباء مثله . . . ولكن أرزاق . . . . . يقول هذا ليقبض الجنيهات الثمانية فقط . . . عينى عليكى يا عايشة . . . ربع الجنيه فقط كنت آخذه من الفقراء ، وفرخة فى السابع . . . ثم نصف كيلة من الأذرة أو القمح عند ما يطيب الزرع . . . إنه أجر يستطيع دفعه أفقر الفقراء عند ولادة الطفل . . . أما امرأة العمدة أو الناس المستورين فهذا أمر آخر . . . كل يدفع على قدر حاله . . . والجود بالموجود . . . زينب بنت خالتك خضرة . . . الأرملة التى تعيش فى بحطيط . . .

— أعرفها . . .

— ذهبت لتوليد البنت فوجدتها قد ولدت فعلا . . . حكمة ربنا . . . كانت تعمل أجيرة فى جنى القطن عند ما شعرت فجأة بآلام المخاض فأخذت ناحية بين شجيرات القطن ورقدت . . . وطلقة والثانية ثم أنزلت ولداً كالعجل الصغير . . . المساكين لهم رب . . . لو أنها كانت ابنة الشيخ فلان أو الغنى فلان لشعرت بآلام المخاض طويلا ثم رقدت فى فراشها أياماً طويلة بعد الوضع . . . أسبوع أو اثنين . . . ولكن زينب لم تتعطل عن العمل سوى يوم واحد . . . بعده كانت تخرج إلى الحقل لتجنى القطن من جديد . . . ماذا تفعل وقد أغضبها زوجها منذ شهور

وهى وأمها بلا رجل ولا مال سوى عرق الجبين . . . ؟ هل تعرف . . . ؟ ذهبت لها وربطت الحبل السرى وأخرجت منها الخلاص . . . وزرتها فى اليوم الثالث لأطمئن عليها فلم أجدها كانت فى الحقل . . . وأخرجت أمها عشرة قروش ، أتعابى . . . تصدق بالله . . . رفضت بكل شدة وأخرجت من جيبى عشرة قروش ألقيتها فوق المولود . . . الناس لبعضها . . . تصور زينب هذه تذهب للمستشفى أو للطبيب ؟ ماذا كان يحدث لها ؟

وتمضى خالتى عايشة فى نقمتها على الناس والزمن ، لقد عاشت طويلا ورأت كثيراً .

وكان عصرها الذهبي منذ ثلاثين أو أربعين سنة . لم يكن الأطباء بكل هذه الكثرة ، ولم تكن المستشفيات قد عرفت بعد فى القرى والحقول . كان هناك مستشفى واحد فى الزقازيق للمديرية كلها . ولكن مَن مِن الفلاحين كان يذهب للمستشفى ، كان حلاق الصحة يداويهم . أما النساء فلم يكن يعرفن سوى خالتى عايشة فقط . كان هذا هو العصر الذهبي حقاً . العمل كثير والخير كثير والقرش له قيمة . والنساء لا يتوقفن عن الحمل والولادة ، والنقود تنهال على خالتى عايشة ، والحب ، القمح والأذرة والفول ، يملأ بيتها ، والطيور لا تتوقف عن الصياح واللعب بين جنبات المنزل .

هكذا كانت الدنيا رفيقة حانية على خالتى عايشة . . . تعمل وتجد مقابلا ضخماً لعملها . . . كانت الدنيا يا بنى مليئة بالخير ، وكان الناس غيرهم اليوم ، كانوا أكثر كرماً وإنسانية . . . فقيرهم وغنيهم على السواء . أما الحكومة فلم تكن لتتدخل فى هذا الأمر وكيف تتدخل فيه ؟ امرأة حامل تقوم بتوليدها الداية ، ما شأن الحكومة بهذا الأمر ؟ كان الحكام يعرفون حدودهم ولا يتدخلون إلا فيما يعنيهم ، فى الانتخابات . . . نعم . . . فى ضريبة الأطيان . . . فى السرقة أو القتل . . . هذه واجبات الحكومة . . . أما الحمل والولادة والداية . . . فهذه بين الناس وبعضهم فقط . . . هكذا ترى خالتى عايشة . . .

— وبعد يا خالتى عايشة . . . ؟

— ماذا أقول يا بنى . . . ازدادت المستشفيات شيئاً فشيئاً . . . أصبح فى الزقازيق أكثر من مستشفى ، ثم عرف الفلاحون طريق القصر العينى . . . ولكن كل هذا لم يؤثر فى عملى . . . يهمنى أنا الحمل والولادة لا الأمراض والجروح . . . ولكن المستشفيات أقيمت فى المركز ، فى أبو حماد . . . ولكن من الذى كان يذهب إليها . . . ؟ أنت تعرف . . . لم يكن يلجأ لها إلا القليل . . . وكان

الذى تضطره الظروف إلى البقاء فيها يبقى كارهاً وكأنما حكم عليه بالسجن . . . حقيقة إن الناس أصبحوا أقل كرماً وإنسانية . . . وفقدوا كثيراً من الخير الذى كان يملأ جوانحهم . . . ولكن يبدو أن النساء كن يحملن كثيراً فى أيام الحرب . . . والعمل الكثير أتى بنقود كثيرة . . . كانت النقود تجرى بين أصابع الناس . . . لم يكن لها قيمة كبيرة ولكن كميتها كانت كبيرة . . . ومعسكرات الإنجليز كانت تعطى العمال أجوراً عالية . . . وخالتك عايشة كانت تأخذ جنيهاً كاملا عند ما تقوم بتوليد امرأة أحد العمال . . . أحمد أبو ابراهيم دفع جنيهاً . . . هل تصدق ؟ عندما ولدت امرأته ابنها سعيد . . . وفى السابع أعطانى خمسين قرشاً . . . هذا غير عدد من علب اللحم التى يأكل منها الإنجليز . . .

وتعقب خالتى عايشة على قولها الأخير . . .

ـ لم آكلها بالطبع . . . من يدرى إذا كانت الذبيحة قد ذكر عليها اسم الله . . . هل الإنجليز يعرفون ربنا أيضاً ؟

ثم تعود خالتى عايشة بعد فترة صمت قصيرة إلى الاستطراد فى حديثها . . .

ـ ثم أخذ عدد الأطباء يزداد وبعد أن كان فى المركز طبيب

واحد هو مفتش الصحة توارثوا واحداً بعد الآخر حتى أصبحوا اليوم أكثر من خمسة وعشرين . . . وشيئاً فشيئاً أصبح الأطباء يقومون بتوليد نساء الأغنياء . . . . . وانتابت الغيرة النساء الأخريات ، حتى أصبحت الولادة بمعرفة الطبيب شائعة بين النساء . . . ولكنى — والشهادة لله — لم أفقد شيئاً بهذا التغيير ، فقد كانوا يرسلون لى أيضاً . . . إننى امرأة . . وأفهم النساء أكثر من أى طبيب . . . وهن أكثر راحة معى عنهن مع الطبيب . . . وكنت أحصل على أجرى كالمعتاد ، بل وزيادة . . . فالذى يدفع عشرة جنيهات للطبيب لن يستكثر جنيهاً على الداية . . . . . أرزاق . . . . .

ثم كانت المصيبة الكبرى ، البلاء الذى لا يمكن دفعه . . . . فقد أنشأت الحكومة مستشفى للبلدة . . هذا الذى تراه . . . هل طلب منها أحد إنشاءه . . . لكنها نقود كثيرة عند الحكومة ، لا تدرى ماذا تفعل بها . . . ؟

هكذا تردد خالتى عايشة وهى تسألنى وتؤكد لى . . .

— أليس كذلك . . . ؟

ثم تمضى وقد اشتدت نقمتها . . .

ـ واعتقدت أن إنشاء المستشفى لن يؤثر على العمل . . . . ولكن يا بنى . . . المستشفى أصبح فيه مع الطبيب حكيمة وممرضة وتحت أمرهم سيارة . . . تصور سيارة يذهبون فيها لتوليد نساء الفلاحين . . ! وأنا . . . ؟

وتضرب خالتى عايشة صدرها . . .

ـ أنا التى ظللت أجوب البلاد والقرى ليلا ونهاراً على قدمى هاتين أو فوق ظهر الحمارة أكثر من أربعين عاما . . .

ثم تضحك خالتى عايشة . . .

ـ ولكن لم العجب ؟ . . إن ساعى البريد الذى رأيته طول عمرى عجوزاً يركب الحمارة ويرفع فوق رأسه مظلة قديمة ، أصبح شاباً يركب دراجة . . . ومن يدرى ماذا نرى غداً . . . ؟

وأخيرا أصدرت الحكومة أمرها بأن المواليد تقيد فى المستشفى فقط . . . . وأخذوا الدفاتر من عامل التليفون ووضعوها فى المستشفى . . . ثم أصدروا أمرهم الظالم بمنع الدايات من توليد النساء . . . . ومن تريد الولادة تذهب للمستشفى أو ينتقل إليها المستشفى . . . ماذا أفعل يا بنى ؟ هل أقف وحدى ضد الحكومة

وضد الزمن ؟ هذا الزمن الذى لم أعرف مثله أبداً طول عمرى ؟ شلبية وأم الخير وزينب ومبروكة . . . . كلهن يا بنى تحضر من أجلهن عربة المستشفى هذه ، وفيها السيدة الحكيمة والممرضة . . . بينما أقف أنا أشاهد هذا الموكب وأبكى الأيام والزمن وانعدام الخير والإنسانية . . .

ويتضح الموقف تماماً تحت بصر من يستمع إلى خالتى عايشة ويدرك ما هى فيه . . . إن لم يكن قد حدث معه ذلك من قبل . وأخيراً لا يملك نفسه من سؤالها . . .

— وكيف تعيشين الآن . . . ؟

وترفع خالتى عايشة يديها إلى السماء . . .

— فضل ربنا واسع يا بنى . . . إنه لا ينسى عباده . . . ربك يرزق الدودة بين الأحجار . . . الطيب والحكيمة يقومان بتوليد النساء . . . وأجرى كالمعتاد يصل إلى . . . منزل العمدة والمشايخ . . . والناس المستورين كلهم يفعلون هذا . . . أطال الله بقاء السيدات بنات الناس الطيبين . . . كلهن يعرفن فضلى . . . . ولم يتنكرن لى . . . بيدى هذه أخرجت أبناءهن إلى النور . . . وكلهم الآن قضاة وأطباء ومدرسون وموظفون . . . هل تنسى

أمهاتهم هذه اليد . . . . . الأصل عليه عمل يا بنى . . . . .

— بعض نساء الفلاحين لا زلن يرفضن أن تقوم بتوليدهن الحكيمة . . . ولا يخبرن المستشفى إلا بعد إتمام الولادة . . إنهن أوفياء لخالتك عايشة . . . هؤلاء لم يغيرهم الزمن ولم يتغيروا مع الزمن . . . أما بقية الناس فقد جرفهم التيار ، وتغيروا كلهم مع الزمن . . . وتركوا يدى خالتك عايشة . . . المظاهر تغرر بهم يا بنى . . . منظر المستشفى النظيف هـذا . . . والحكيمة ترتدى المعطف الأبيض وتغطى يديها بقفاز . . . زمن يا بنى ... زمن . . . زمن انعدم فيه الخير وانقلبت الأوضاع كلها . . . دنيا غير الدنيا . ومن يدرى ماذا يحدث غداً .

وتمضى خالتى عايشة فى نقمتها على الزمن والناس والحكومة . . . . على هـذا التغيير الذى أصاب الحياة . . . . وعلى عصرها الذهبى فى المـاضى . . .

فى ليلة واحدة

كانت التسمية بداية حلقة جديدة من حلقات التطور . . . ليلى مرة واحدة ! ! إنه اسم لم يدخل بيوت الفلاحين من قبل . . . اسم عليه طابع المـــدينة ، ذات المبانى النظيفة والشوارع الواسعة والسيارات الكثيرة . . . . اسم يستدعى إلى الذهن السيدات الأنيقات اللاتى يخطرن فى شوارع المدن بالفساتين الضيقة آخر مودة . . . ولكنك يارسمية صممت أن يكون هذا هو اسم ابنتك حتى وإن رفضه الأهل جميعاً ، أهلك وأهل زوجك . كان عبد المعطى زوجك ، يريد أن يسمى ابنته فاطمة ، على اسم فاطمة

بنت النبى ، واسم أمه . وكانت أمك أنت تتطلع إلى أن تسمى البنت على اسمها ، نفيسة . ولكنك يارسمية لم تكونى لترضخى لمثل هذه الرغبات ، وتتركى هذا الاسم المودة الذى اخترته لابنتك . وفى القرية من النساء العجائز من تدعى ست الدار أو بخاطرها أو أم الهنا أو نبوية ، هذا فريق الجدات أما الأمهات فمنهن فاطمة ومبروكة وسعدية وفتحية . واليوم ، وبعد أن اخترت أنت هذا الاسم يوجد شادية ونبيلة ونادية . هذا بعد أن سميت أنت ليلى . وبعد أن أدخلت أسماء فتيات المدن إلى القرية . ولكنك أنت التى بدأت هذا التطور الكبير فى أسماء فتيات القرية يارسمية .

لقد سمعت — هذا الاسم — بأذنك التى سيأكلها الدود عندما كنت فى طريقك إلى سوق المركز . وبينما أنت تخترقين المدينة وفوق رأسك القفة مليئة بالأذرة التى اشتريتها من السوق تناهى إلى سمعك صوت رقيق جميل — كم أعجبك هذا الصوت وقتها حتى تمنيت أن يكون لك مثله — وكانت صاحبة الصوت تنادى ابنتها ، ليلى . وتطلعت يارسمية لترى ليلى . حلوة لطيفة ، فتاة كالوردة الصغيرة بخدودها التى يطفح منها الدم وبياض بشرتها البضة وفستانها الأبيض الصغير الذى يرتفع كثيراً فوق ركبتها . يا للحلاوة — هكذا يجب أن تكون الفتيات .

(وتطلعت يارسمية تشبعين بصرك من هذه الحلاوة وأنت

تركزين عقلك كله فى بطنك ، الذى كان حجمه أكبر بكثير من تلك القفة التى تحملينها فوق راسك ، وقلت لنفسك . تطامى إليها واملئ عينيك حتى تأتى ابنتك حلوة مثلها . واستجمعت يا رسمية بصرك لتنظرى مرات ومرات إلى الفتاة الحلوة الصغيرة التى كانت أمها تناديها بذلك الصوت الرقيق .

ومنذ ذلك الحين واسم ليلى لا يفارق خيالك يا رسمية ، فى الصحو أو فى المنام ، فى السير أو القعود ، بل إنه كان يحلو لك أن تنادى الجنين بهذا الاسم كلما شعرت به يتحرك فى أحشائك . كم كان وقعه — ولا يزال — جميلا يرن كالذهب — أفبعد هذا كله كان من الممكن أن ترضخى لزوجك أو للأهل جميعاً عندما أرادوا أن تطلق على ابنتك اسماً آخر ، فاطمة مثلا أو نفيسة أو زينب أو غير ذلك من الأسماء . لا والله لا يحدث هذا أبداً ، ولن تسمى ابنتك إلا بهذا الاسم الجميل اللطيف الذى تحمله تلك الفتاة . آه لو تصبح ابنتك مثلها ، تلك الفتاة الحلوة .

ولكنك صممت ونفذت ماعقدت عليه العزم . . .

وهاهى شهور طويلة تمر على ذلك الوقت يا رسمية . ولكنك تذكرين تلك الليلة — التى حضرت فيها ابنتك إلى عالم الوجود . تذكرينها كأنها حدثت بالأمس فقط . فى تلك الليلة شعرت بآلام

المخاض الحادة الموجعة . آلام شديدة فى الجانبين كأنما هى سكاكين حادة ، وخبطات موجعة فى الحوض ، كأنما هناك من يلكمك فيه بشدة ، مع شعور ضخم بالخور والإرهاق ، وحاجة ملحة إلى أن تجرى نحو الزريبة لقضاء حاجة ، ولا حاجة هناك .

فى تلك الليـــلة — وكما حدث فى الليالى السابقة المماثلة — ارتبك عبد المعطى واضطرب ولم يعرف ما يفعل وكأنه طفل صغير وهو يسمعك ترقعين بصوتك كأنما حدثت حريقة ، ثم وأنت تتأوهين وتصدرين من أعماقك أنات مكتومة ، فيها كل الألم والمعاناة والعذاب الذى كان يطفح على وجهك على هيئة حبات متزايدة من العرق وصفرة واضحة كصفرة الليمون .

وعندما جاءت الجارات مهرولات ، واطمأن عبد المعطى إلى أنك تجدين الرعاية اللازمة ، أسرع إلى قرية الحسينية فى طلب أمك . وفى ليل الشتاء المظلم ، وبرده القارس الذى كان يخترق عظام المرأة العجوز ركبت أمك حمارة عبد المعطى ، بينما سار هو إلى جانبها يستحث الحمارة على السير ، بأصوات يخرجها من فمه ، وبضربات بجمع يده فى بطنها كأنما يريدها أن تطير . أنت تعرفين شعور عبد المعطى زوجك ، فى مثل هذه الأوقات يا رسمية . . . إنه لا يحتمل أن يمسك الهواء بسوء ، فكيف وأنت فى مثل هذا العذاب ؟ . . .

أنت تذكرين تلك الليلة تماماً ، كأنما كانت بالأمس القريب فقط . . .

فى تلك الليلة — ووسط آلامك وضجة النساء حولك ، تذكرت ما كان يجب أن تقوليه لزوجك من قبل . ولا تدرى يا رسمية ما الذى أنساك ؟ أم أنك خشيت أن يهملك زوجك عندما يعلم أن الجاموسة فى حالة مخاض أيضاً . هل كان عبد المعطى سيقف بجانب الجاموسة يساعدها على الولادة أم كان سيذهب لأمك يناديها إذا كان قد عرف وقتها أن الجاموسة ستلد فى تلك الليلة ؟ ولكن يجب أن تحكمى عقلك يا رسمية . هل تجعلين رأسك — عند عبد المعطى — برأس الجاموسة وتنتابك الغيرة منها ؟

أنت أيضاً كنت تطلبين منه أن يقف إلى جانب الجاموسة يا رسمية ، فإنها كل ما تملكان فى الدنيا . . . الأرض مؤجرة من أصحابها ، والمنزل يملكه أصحاب الأرض ، والملك كله للمالك . ولكنكما — عبد المعطى وأنت — تملكان هذه الجاموسة الغالية هى فقط . وما كان قلبك ليسمح بأن تترك وحدها فى مثل هذا الموقف المؤلم المريع . وأنت تدركين جيداً إلى أى حد يصل الألم والعذاب ، بل إنه لو لم يكن عبد المعطى موجوداً — لذهبت أنت يا رسمية — بكل آلام المخاض الذى كنت تعانين منه — ورقدت

تحت أقدام الجاموسة ، وبذلت كل ما فى وسعك لمعاونتها حتى تلد .

كانت بشائر الولادة ظاهرة عليها . كانت تسير متثاقلة وأنفاسها تخرج من طاقتى أنفها بصعوبة ومعها إفرازات بيضاء تمتزج بإفرازات أخرى من فمها . ومن خلف الجاموسة كان يتدلى غشاء مخاطى طويل يكاد يصل إلى ركبتيها . وكان الجميع يقولون . . . ستلد جاموسة عبد المعطى غداً . وكان الكثيرون سيأتون فى ذلك الغد لبذل المساعدة للجاموسة حتى تلد ، بعضهم — أهل القرية — كان سيوقد لها النار حتى يدفئها من البرد القارس ، وأنت أيضاً يا رسمية لم تنعمى بالدفء فى ليلتك إذ لم تستطيعى إيقاد الفرن — ورقدت تقشعرين تحت الأغطية . ولكن هذا لايهم ، المهم أن أهل القرية كانوا سيحضرون فى ثانى يوم يساعدون الجاموسة على الولادة . وبعضهم — وهم الأكثر خبرة فى هذه الأمور — كانوا سيضعون يدهم فيها ، فى الجاموسة ، يعدلون وضع جنينها ويساعدونه على الخروج إلى النور .

ولكن أحداً من أهل القرية لم يحضر الولادة إذ خيبت الجاموسة ظنهم جميعاً وولدت فى تلك الليلة قبل تقديرهم بيوم . أنت التى رأيتها عند الغروب ورأيت منها ما جعلك تتوقعين بأنها ستلد معك فى ليلة واحدة ، تلك الليلة التى تذكرينها جيداً كأنما

حدثت بالأمس وإن كنت لم تتذكرى إخبار عبد المعطى — فى ذلك الوقت — بحالها . لقد ألهاك حالك عما كانت فيه هى أيضاً من معاناة وألم .

ولكنك تذكرت يا رسمية ، نعم . . لم تنس الأمر كلية ، وما كان يمكن أن تنسيه أبداً والجاموسة هى كل ما تملكان فى هذه الدنيا أنت وعبد المعطى . وسط ضجيج النسوة ، وبعد أن حضرت أمك على حمارة عبد المعطى فى نصف الليل ، ومن ذلك الألم الذى كان يمزق جنبيك ووسطك ، أخذت تصرخين . . . . . الجاموسة . . . . . الجاموسة . . . . . أين عبد المعطى . . . ؟ ستلد الجاموسة الليلة . . . .

وبكيت يا رسمية بدموع غزيرة ، هكذا قالوا لك فيما بعد ، فلم تكونى فى حالة تسمح لك بمعرفة ما تفعلين أو بما يحدث لك . ولكن لماذا بكيت يا رسمية ؟ هل كنت تخشين أن يحدث لها شىء أثناء الولادة؟ أم أن الألم المريع الذى كان يمزق أحشاءك هو الذى دفعك للتفكير فى آلامها ؟ ولمن كان بكاءك وعلى من ؟ عليها هى أم على آلامك أنت يا رسمية ؟ ولكن لم تبكين على آلامك وقد كانت أمك بجوارك تنادى بصوتها العطوف كما لم تناديك وأنت طفلة صغيرة تتشوقين إلى كلمة الحنان والحب . . . . كانت أمك

تنادى . . . ابنتى حبيبتى ، وتضمك إلى صدرها ، إلى قلبها ، أما هى — الجاموسة — الجاموسة التى لا تملكان غيرها فى هذا العالم أنت وعبد المعطى فليس لها أم تضمها ولا قلب حنون يرعاها . أنت وعبد المعطى فقط اللذان تضعاها فى قلوبكما وترعيانها أكثر مما ترعى الأم أولادها .

ولو أنه حدث لها شىء فى تلك الليلة — لا قدر الله — لبكيت بدل الدمع دماً — وعشت وعبد المعطى فى حزن دائم سنوات طويلة ، مرهقة ، كلها جوع حتى يمكنكما شراء جاموسة أخرى .

وفى تلك الليلة التى تذكرين أحداثها جيداً يا رسمية ولدت ابنتك ليلى . وفيها أيضاً ولدت الجاموسة عجلها الصغير الذى كان يركض حتى الأمس فى الزريبة ، ذلك العجل الصغير بشعره اللامع وجسده المستدير الذى لا يظهر منه عظام . كم كان جميلا شقياً وهو يجرى ويبرطع هنا وهناك ثم ينقض على أثداء أمه عندما تدخل الزريبة ، عند الغروب . ولم يكن يبقى لكما شىء من اللبن يا رسمية . حتى ولا لهذه البنت الصغيرة التى لا تجد عندك شيئاً منه . لقد جف ثدياك سريعاً بعد ولادة ليلى . أنت لا تأكلين ما تحتاج إليه الأم من طعام يارسمية . من أين ؟ ولكنها ، أوه ، لم تكونى لتدعيها تحتاج شيئاً . كنت تقفين معظم وقتك على جسور الترعة والقنوات تجمعين لها الحشائش الخضراء الطرية ، وكنت تناولينها

بيدك قبضات من الشعير تختلسينها مما تعدانه لصنع الخبز . فمن الذى فعل معك مثل هذا حتى تدر أثداءك هـــذه الجافة شيئاً من اللبن للصغيرة . ولكنها كانت تجد حاجتها من الجاموسة أيضاً . كنت تدفعين ذلك العجل أحياناً لتحصلى على شىء من اللبن لابنتك . . . ماذا تفعلين . . ؟ أنت ترهقين نفسك لجمع الحشائش ، ويجب أن تجد ابنتك هذه بعض اللبن حتى تعيش .

فى تلك الليلة — ليلة ولادة الجاموسة — جاء عبد المعطى يهرول وكنت أنت لم تلدين بعد . وطلب من أمك أن تعد قدرة كبيرة من المسلوقة — فول وشعير — حتى تأكل الجاموسة وتستعيد قوتها . وفهم الجميع أن الولادة قد تمت وتناول عبد المعطى بصلتين كبيرتين ضغطهما بين كفيه حتى مزقهما ، ثم أخذهما إلى العجل الصغير ليضعهما على طاقتى أنفه حتى تتهيجان وتؤديان وظيفتهما فى الشهيق والزفير .

وكنت أنت يا رسمية — ترقدين على قبة الفرن وقد ألقوا عليك بطانيتكما القديمة — وعندما سمعت عبد المعطى يطلب المسلوقة امتلأت بالفرح والسعادة ، وكدت من بين دموعك الجارية ، والامك الفظيعة ، ترقعين زرغوتة يسمعها من ينام فى القرى

المجاورة . ولكنك حبست فرحك فى داخلك ، واستجمعت قواك كلها ، والنسوة يشجعنك ، وأمك تستحثك وكأنها تلد معك . ومع صرخة ألم عالية منك شعرت بالفرج وبالفراغ فى داخلك ، وبأن عبئاً ثقيلا قد انزاح عن كاهلك ، وانطلقت الزغاريد من أفواه النساء وهن يتساءلن هامسات ولد أم بنت ، ثم ماتت الزغاريد على شفاههن عندما علمن بأنها . . . . . ليلى . ربك العاطى يا رسميه ، ولداً كان أم بنتاً ، ما الفارق ؟ لا الولد ينفع أهله ولا البنت . ماذا فعلت أنت لأهلك . وما الذى فعله عبد المعطى أكثر منك ؟ . . . إنها القسمة والنصيب . بل إنك كنت تتلهفين إلى البنت منذ ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى المركز وسمعت تلك الأم تنادى ابنتها ليلى . ولو أنها كانت ولداً — كنت ستفرحين يا رسميه ؟ هذا لا شك فيه ولكنها — قسمة ربنا ، ثم كيف كنت ستدعينه ليلى .

ومدت أمك — فى تلك الليلة — يدها إلى بصلة صغيرة — بعد أن عقدت الحبل السرى ثم قطعته — وفركتها فى أنف البنية فصرخت . . . . واء . . . . واء . . . . وأمك تتظاهر بالسخط وتلعن مقصوفة الرقبة التى جاءت بها فى منتصف الليل وفى البرد الشديد . . .

وفى ثانى يوم ذبحت لك أمك فرخة التهمتيها وحدك . . . .
هكذا يجب أن تسير الأمور ، وإلا ساد النحس وجف لبن الأم .

ولكنك اضطررت للقيام تانى يوم يا رسمية . ماذا تفعلين والجاموسة تحتاج إلى من يسلق لها الفول ، وأمك قد غادرتك لتصنع خبز أولادها الذين لم يتزوجوا بعد . هذا ما حدث تماماً كأنه كان بالأمس . إذ جلس عبد المعطى ينفخ فى جذوات النار ، ويميل برأسه حتى يكاد يصل به إلى الأرض ، وينفخ بقوة فلا يتصاعد سوى دخان يملأ عينيه وأنفه ويسيل الدموع من عينيه ويجلب الكحة والحشرجة إلى صدره . واضطررت يا رسمية إلى القيام ، ولا من يقوم من ولادة إلا بعد سبعة أيام أو ثلاثة على أقل تقدير ، وجلست إلى جانب عبد المعطى أمام جذوات النيران ثم رفعت ذيل ثوبك — وأمسكت به بين يديك وأخذت فى رفعه وخفضه حتى تشتعل النيران . ويقول لك عبد المعطى وهو يرى جسدك بأكمله عارياً أمامه . . غطى يا بنت ، إنه يخشى أن يصيبك الهواء بضرر يا رسمية وترقدين شهراً أو اثنين فى المنزل — ولكن ياللخجل يا رسمية ! ! . . حتى هذا تذكريه ؟ . . ولكن لم الخجل وهو زوجك وأنت زوجته . . . وأنت يا رسميه — رغم ما لقيته من عذاب الحمل والولادة تتوقين أيضاً إلى ذراعيه — وتتمنين أن

تنتهى هذه الأربعون يوماً ، اليوم قبل الغد . إنك تحبين عبد المعطى ولا تريدين فراقه حتى وإن أعطوك مال الدنيا كلها ، أرضاً كثيرة لا تحدها العين وبيوتاً عديدة كبيوت القرية ، وقطيعاً من الجاموس من مثل جاموستكما هذه ، وهو أيضاً يبادلك هـذا الشعور حتى وإن ادعيت غير هذا فى بعض الأحيان واتهمته بأنه يتوق للزواج — مرة ثانية — هذا حديث لساعات الصفو فقط تتدللين به عليه فيسره الأمر مثلما يسرك وينتهى الحديث وقد رقد كل منكما بين ذراعى صاحبه وأخذ يؤكد لها حبه بالأقوال والهمسات .

وبعد تلك الليلة التى تركت فيها مرقدك وذهبت تشعلين النيران المطفأة وتسلقين الفول للجاموسة أخذت على عاتقك إطعام العجل الصغير مثلما تطعمين أمه ، وداومت على ذلك أياماً وشهوراً . . . تجلبين الحشائش الخضراء تطعمينها للأم وتتركين أثناء الأم يلقمها العجل الصـغير وقد وقف على أرجله بعد مولده بأيام ، ومضى عام كامل وأنت ترضعينه أمه وتطعمينه مما تجلبينه من حشائش غضة ، حتى استتمام عوده وامتلأ لحماً وشحماً وظهرت عليه الصحة والعافية والنشاط . . . واليوم يضع عبد المعطى فى جيبه فوق قلبه ، ورقتين كبيرتين من هـــذا الورق الحبيب كل منهما بعشرة جنيهات . لقد تعبت طويلا وأرهقت جسدك كثيراً . . ولـكن بفائدة يا رسمية .

هذه عشرون جنيهاً . و بعدة عشرينات أخرى فوقها يمكنكما شراء بضع قراريط تكون ملكا خاصاً لكما ، ويكون إنتاجها كله بلا استثناء ، لكما أنتما الاثنين — ولهذه الطفلة الصغيرة وإخوتها .

و بعد عشرون سنة ، لا . . . لا . . . بعد خمسة عشر فقط سيأتى ابن الحلال ، فتى من شبان القرية الذين يمتلئون قوة وصحة، مع أبيه وعمه ويقدمان إلى عبد المعطى عشرون جنيهاً — كهاتان الورقتان — مهراً لعروستنا الحبيبة ، هذه — ليلى . . .

لقد كان ميلادها فى ليلة تذكرين أحداثها تماماً يا رسمية ، كأنها حدثت بالأمس . ولكن لا الفلوس ولا القراريط — ولا شىء فى الدنيا كلها يعدل هذه اللحظات ، وكل منكما يشعر بأن الآخر أحب إلى قلبه من نفسه وبأنه يتمنى أن يزداد التصاقه به واندماجه فيه .

ثم تعودين يا رسمية إلى الحمل من جديد . . . تسعة أشهر كاملة ثم ترقدين فوق الفرن تصرخين وتتصاعد منك الأنات .

ومن يدرى ؟فقد يحدث للجاموسة ثانية مثل ما حدث لك ؟ . . وقد تتوافق المواعيد كما توافقت فى تلك الليلة التى لا زلت تذكرين كل شىء فيها فتلدان معاً مرة أخرى — ليتها لا تترك سنة بدون

ولادة هى الأخرى . . ! ! ولكن يا رسمية — ما بال هذه الجاموسة تلاحقك فى كل مكان من ذكرياتك وتكاد تطغى عليك فى كثير منها ؟ ولكن لا يغضبك الأمر يا رسمية ولا يسوءك كل هذا . لحظة واحدة من تلك اللحظات التى يسود فيها التآلف والامتزاج بينك وبين عبد المعطى ، لا تملكها الجاموسة ، ولكنها تعوضك عن كل شىء وترجح كفتك . . .

وتدفعك إلى مزيد من العمل والجرى والشقاء ، بل وتدفعك حتى إلى رعاية وخدمة الجاموسة .